الرسول والشعراء

أحمد سويلم

الناشر
٢٠٠٥
دار الهدى للكتاب

دار الهدى للكتاب

تليفون : ٠٤٧/٣٦٠٤٦٠١ - ٠٤٧/٣٦٠٣٦٠١ - ٠٤٧/٣٦٠٢٦٠١

مطابع أمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة- لاظوغلى - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

- الطبعة الأولى : ١٤٢٦ / ٢٠٠٥م

- رقم الإيداع : ٤٢٦٣ / ٢٠٠٥

- الترقيم الدولي : **I.S.B.N 977 - 5798 - 33 - 7**

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن تقرأ

كما ترى - عزيزى القارى - فموضوع هذا الكتاب يركز بصفة أساسية على المشهد الشعرى فى حياة الرسول ﷺ.. ويتضمن بطبيعة الحال جانبى المشهد:

الشعراء المسلمين.. وشعراء الكفار المشركين.. كما يصاحب أحياناً الشعراء الذين تحولوا من الشرك إلى الإسلام.. ومن الجاهلية إلى الإيمان.

وربما تناول الكثيرون هذا الموضوع حسب اجتهاد كل منهم ونظرته ورؤيته فى إطار بحثه.. ومن ثم فإن بعض جوانب هذا المشهد مبثوت فى كتب التراث القديم.. وكذلك كتب المحدثين.. لكنها جوانب مقصورة على إبراز بعض الشعراء أو الأفكار دون أن تتميز بالنظرة الشاملة لجوانب هذا المشهد بكافة.

وأحسب أن النظرة الشاملة - أيضا - لن تتحقق مهما كثر الباحثون واجتهدوا.. ولهذا.. فإن جهدى اليوم يحاول أن يرسم للمشهد ملامحه العامة.. ويحاول أيضا أن يقف أمام بعض العلامات - أو لنقل أكثر العلامات - تأثيراً فى تكوين هذه الملامح.

إن جـهـدى اليـوم يبـدأ من قـبل بعـثـة الرسـول ﷺ بـقليل.. فـيـقف أمـام المجـتمع الشعرى الجاهلى.. وكيف نظر إلى العقائد السائدة.. وأرّخ لها.. وناصرها أو تأملها وأنكرها.. ثم نستكمل الرحلة مع بزوغ الإسلام.. ونؤكد موقف الإسـلام من الشـعـر والشـعـراء.. وكـيف اتـخـذ الرسـول من الشـعـر والشعراء وسائل إعلامـيـة تنافح عن الدعوة.. وترد على هجاء المشركين للدين الجديد وللرسول..

وهو مـوقف لا يحـتـاج منا أن ندافع عنه أو نثـبتـه.. بقـدر مـا نؤكـد به ضرورة اعتبار الشعر جزءاً من الثقافة الإسلامية.. فالإسلام هبط فى قوم يقدرون شعراءهم ويعدون الشعر ديوانهم وسجل أيامهم..

هل نقول: إن هدفنا هنا هو تصحيح مفهوم الإسلام للشعر.. ذلك أن أى تغير اجتماعى أو ثقافى أو عقائدى فى المجتمع الجاهلى.. لم يكن يتم أو يحـدث كـما هو مـقـدر له بـغـيـر إدخـال الشـعـر والشـعـراء فـى منظومـة هذا التغيير.. لأنه عصب الثقافة العربية.. ليس فقط فى العصر الجاهلى بل فى العصور التالية عليه كذلك.

وسوف تؤدى بنا هذه الرحلة الشائقة إلى مرافىء زاخرة تروى ظمأ التعطش للمعرفة كلما توقفنا وتأملنا المزيد من العلامات والوقفات.

وتيسيراً للبحث رأينا أن تكون رحلتنا على هذا النحو:

أولاً: بحث وتحليل نظرة الإسلام إلى الشعر والشعراء بموضوعية شديدة وبأسانيد وشواهد موثوقة صحيحة.

ثانياً: النظر إلى المشهد العشرى فى عصر الرسول فى ضوء:

أ ـ الشعراء المخضرمون الذين عاشوا الجاهلية وكيف استوعبوا تأثيرات الدين الجديد فى أشعارهم.

ب ـ شعراء أطلق عليهم: شعراء الدعوة الإسلامية وهم على سبيل الحصر «حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة».. وما دورهم فى نشر العقيدة الجديدة.

جـ ـ طواف آخر بالشواعر اللائى ساهمن بأشعارهم فى هذا المشهد وكذا موقف الخلفاء والصحابة مع الشعر..

د ـ ما قيل من شعر فى الغزوات باعتبار الشعراء وسائل إعلام لا ينافسهم أحد. وكيف واجه شعراء الإسلام شعراء المشركين.

ولابد أننا فى كل ذلك نعجز عن الإحاطة الكاملة الشاملة.. فسقنا ما رأيناه نموذجاً معبراً عن هدفنا وما نريد أن نؤكده.. كما أننا لم نذكر سوى غزوتى بدر وأحد على ألسنة الشعراء باعتبارهما ـ أيضًا ـ نموذجين للفوز والهزيمة..

وأحسب أن هذه الرحلة ـ على طولها ـ سوف تقدم ملامح الشعر فى حياة الرسول ﷺ كما تقدم موقفه من الشعراء لنخرج بلوحة متعددة الألوان والرؤى...

والله الموفق،،،

أحمد سويلم

٢٠٠٤.٧.٢٠

العرب والشعر

يؤكد الواقع التاريخى أن الإسلام يمثل نقلة حضارية واجتماعية وثقافية فى المجتمع العربى.. وقد انعكست ملامح هذه النقلة على الشعر.. باعتباره ديوان العرب وسجلاً لحياتهم ووقائعهم..

فقد قامت الحياة العربية قبل الإسلام على نظام القبيلة التى كانت تمثل الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وكان شاعر القبيلة هو جهاز إعلامها الوحيد الذى يفاخر بمآثرها.. ويقف مدافعاً عنها أمام شعراء القبائل الأخرى.. ولهذا أطلق على هذه الصورة «العصبية القبيلة».

والعرب تنشد الشعر من المهد إلى اللحد.. ويؤكد ابن قتيبة مهمة الشعر لدى العرب حين يقول: والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف لو أنفذ عمره فى التنقير عنهم.. واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال. ويؤكد ذلك ابن سلام فى (طبقات فحول الشعراء) بقوله:

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلوم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد.. ومنها ما يثقفه اللسان..

ويؤكد ابن رشيق فى (العمدة) أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنئتها.. وصنعت الأطعمة.. واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس لأنه ـ الشاعر ـ حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لذكراهم ومآثرهم..[١]

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٠ ـ العمدة لابن رشيق ٤٠.

ولذلك اجتهد مؤرخو الأدب فى تناول فن الشعر عند العرب.. ومن أشعر الشعراء؟ ومن أول من قال الشعر؟ وصنفوا الشعراء إلى طبقات.. بل منهم من انتقى قصائد بعينها - جاهلية - وصنفها تحت لافتات مثل: المعلقات - المجمهرات - المنتقيات - المذهّبات - المراثى - المشوبات - الملحمات(١).

مما يؤكد فضل الشعر على العرب فى عصر لم يكن يعرف التدوين.. معتمداً على السليقة والحافظة المصقولة التى كانت تحفظ القصيدة بمجرد الاستماع إليها وترويها فى كل مكان.

ولنا أن نتصور مجتمعًا تنحصر ثقافته فى هذا الفن - وإن كان النثر يحتل جانبًا من هذه الثقافة - ليصير الشعر أهم وسيلة لنقل الأخبار والمآثر والمفاخر والأيام والحروب.. ومن ثم نظر البعض إلى الشعر نظرة تقديس.. واعتقد البعض بأنه مستمد من أصول دينية ولذا كانوا ينشدونه على موتاهم.. أو يتخذونه وسيلة للتقرب إلى الله فى موسم الحج فيلبون بأشعار معينة وهم يطوفون حول الكعبة.

ومعروف أن شعراء المعلقات قد أنشدوا قصائدهم.. وعلقوها فوق أستار الكعبة حتى إذا وفد العرب إليها فى مواسمهم قرءوها وتجادلوا حولها وحملها الرواة فى حلهم وترحالهم على طول الجزيرة العربية..

وارتبط الشعر بالعقيدة السائدة.. وكانت الوثنية هى العقيدة الغالبة لدى العرب قبل الإسلام وكانت أشهر أصنامهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.. ومن ذلك ما قاله عبد العزى بن وديعة المزنى:

---

(١) انظر: جمرة أشعار العرب أبو زيد القرشى.

إنى حلفتُ يمينَ صـــدقٍ برّةٍ
بمناةَ عند مـحلّ آلِ الخـزرجِ

وهذا أوْس بن حَجَر يحلف باللأت والعزّى:

وباللأت والعزّى ومن دان دينَها
وبالله إن الله منهنّ أكـبـرُ

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول:

والـلات والـعـــزى
ومناة الثـالثـة الأخـرى
فـإنهن الغـرانيق العلى
وإن شفاعتهن لترتجى(١)

وحينما أفاق بعض الشعراء من كابوس الأوثان أعلنوا ذلك فى أشعارهم فهذا زيد بن عمرو يعلن:

تركت اللات والعزىّ جـميعًا
كـذلك يفـعلُ الجَلْدُ الصـبورُ
فـلا العـزّى أدينُ ولا ابنتيْهـا
لنا فى الدهر إذ حُلمى صـغيرُ

لم يترك الشعر الجاهلى شيئًا فى حياة العربى إلا سجلها وأشاد بها أو أنكرها.. ولأنه كان الوسيلة الأولى لهذا التسجيل صار القمة الشامخة فى جودة أسلوبه وحسن صياغته وسلامة لغته.. مما عده مؤرخو الأدب قدوة للشعراء على العصور بل نستطيع أن نقول مطمئنين إن الشعر الجاهلى كان

(١) كتاب الأصنام للكلبى ١٨ - ٢٠.

مؤثراً قوياً فى صياغة عقول العرب فى العصور التالية.. وتوحيد أعرافهم وعاداتهم وسجاياهم.. وبذلك جعل الشعر للعرب هوية واحدة وحفظ هذه الهوية من الزوال..

وما دام الشعر الجاهلى قمة الفصحى للغة العرب.. فقد كان طبيعياً أن يرجع مؤرخو اللغة إليه فى فهم لغتهم وتفسير قرآنهم ومعرفة أسلوب القرآن وأحكامه والوقوف على سر بيانه.

وصار من المألوف أن يمثل الشعر ساحة واسعة لشواهد اللغة بعد القرآن الكريم..

من أجل ذلك كله نظر إلى الشعر فى لغته وأساليبه ومعانيه وفنونه على كونه قدوة ودليلاً وشاهداً على حضارة هذه الأمة..

●●●

الرسول والشعر

كان أكثر شعراء الجاهلية من الأشراف والسادة والأمراء وأهل الفروسية والحرب والحكمة.. ولهذا كان أكثر أشعارهم فى الحماسة والفخر بمآثرهم..

وكان الشعراء يتركون العنان لشعورهم للتعبير عن تلك المضامين التى يستمدونهامن بيئتهم القاسية.. لا يتكلفون فى لباسهم وطعامهم وشرابهم وسائر أمورهم.. ويعبر عن ذلك زهير بن أبى سلمى بقوله:

وإن أشعر بيت أنت قائلهُ
بيت يُقال إذا أنشدته صدقا

هذا الصدق الذي يشير إليه زهير هو الذى منح هذا الشعر امتداداً فى الزمن وفى الوجدان العربى.. حتى عصرنا الراهن.. نعود إليه كلما بعدت بيننا الشقة وبين الزمن الجميل.. فنقرأ امرأ القيس وعنترة وزهير والأعشى ولبيد.. والشعراء الصعاليك.. وغيرهم من الشعراء الذين أرسوا الملامح الأولى للشعر العربى وللثقافة العربية.

وحينما جاء الإسلام.. جاء بثورة زلزلت كثيراً من قيم المجتمع العربى.. ورؤية جديدة للحياة والعقيدة.. وكان لابد للإسلام أن يتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان وترك عبادة الأوثان.. وهو بهذا يستند إلى العقلية العربية التى تثقفت على التفكير والقيم.. بالرغم من تعصبها الأعمى للوثنية.

وكان الرسول الكريم - وهو العربى الذى عاش جانبًا كبيراً من حياته

يرقب حياة العرب فى الجاهلية - مدركاً قيمة الشعر فى الحياة العربية وقوة تأثيره فى تشكيل الرأى العام والوجدان العام..

وقبل أن ندخل إلى تحليل هذه الرؤية.. يمكننا أن نلقى الضوء على مرحلتين من حياة الرسول فى علاقته بالشعر.. مرحلة ما قبل البعثة.. ومرحلة ما بعد البعثة والدعوة إلى الإيمان..

الرسول والشعر ما قبل البعثة

جاء فى البداية والنهاية لابن كثير[1]: جاء إلى عبد المطلب من يبشره بمولد محمد فأخذه عبد المطلب وحمله إلى البيت وأخذ يطوف به وأحاط به بنوه وهو يقول:

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلامَ الطيبَ الأرْدان
قد ساد فى المهْد على الغلمانِ
أعيذه بالبيت ذى الأركانِ
حتى أراه بالغ البنيانِ
أعيذه من شرِّ ذى شنآنِ
من حاسدٍ مضطربِ العنانِ

وزاد السّهيلى أبياتاً بعد ذلك يذكر فيها القرآن الكريم والمثانى.. وهى بلا شك أبيات منتحلة زيدت فوق هذه الأبيات..أغفلنا ذكرها..

وجاء فى كتاب (أنباء نجباء الأبناء)[2] أن عبد المطلب حمل النبى ﷺ وهو مولود.. وانطلق به إلى الكعبة فطاف به أسبوعًا - أى كل يوم من أيام الأسبوع - ثم قام عند الملتزم وأنشد يقول:

(١) البداية والنهاية جـ٢ ص٢٦٤.

(٢) تأليف محمد بن ظفر تحقيق إبراهيم يونس، ص٢٦.

يا ربَ كل طائف وهاجـد

وربَ كل غـائبٍ وشـاهدِ

أدعـوكَ بالليل الطفـوح الراكـد

لاهمَ فـاصرفْ عنه كيـد الكائدِ

واحطم به كل عنودٍ ضـاهدِ

وانشـئْـه يا مـخلّد الأوابدِ

في سؤددٍ راسٍ ووجد صاعد[1]

وكانت حليمة السعدية - مرضعة الرسول - عاقلةً مدبرة.. أرضعته فكثر رزقها.. وزاد خيرها وكانت ترقصّه وتقول:

يا رب إذ أعطيتـهَ فـأبقـه

وأعْله إلى العُـلا ورقّـه

وادحضْ أباطيلَ العدا بحقّه

أما الشيماء - أخته فى الرضاعة - فقد كانت ترقصه بقولها:

يا ربنا أبقِ لنا مـحـمـدًا

حـتي أراه يا فـعًـا وأمـردا

ثم أراه سـيـدًا مُـسـوَّدا

واكبتْ أعاديه معًا والحُسَّدا

وأعطِه عزًا يسودُ أبدا

وكـان أبو عـروة الأزدى إذا أنشـد هذا يقـول: مـا أحـسن مـا أجـاب الله دعاءها.. شاهدت أخاها.. «محمداً رسول الله» خاتم الأنبياء والمرسلين سيد

(١) الفوح الراكد: الممتلىء الدائم - لاهم: اللهم - ضاهد: ظالم - الأوابد: الوحوش.

العرب والعجم، ويذكر أن المسلمين كانوا قد أسروها سنة ٨هـ ولما عرفها الرسول ﷺ بسط لها رداءه وأكرمها وردها إلى قومها[1]..

وهذا اللون من الشعر ينتمي إلى الشعر الشعبي العربي ويطلق عليه كذلك: أغاني المهد أو أغاني الطفولة.. وربما فرق الناس في ذلك العصر بين فنين شعريين.. فن ترقيص الأطفال الصغار - الذين لا يدركون للغة معنى.. لكنهم يحسون النغم والموسيقى.. وما نحا نحوه - وفن الشعر سواء قاله وسمعه الصغار والكبار في سن مبكرة أو سن كبيرة وهذا موجود بكثرة في سير الشعراء العرب[2]..

ما نخلص منه في هذه الوقفه أن الرسول ﷺ في طفولته - كأي طفل مولود - رُقّص وسعد وضحك ولعب على أنغام الشعر.. وتربت في وجدانه كما يحدث لأي طفل عربي تلك الحاسة التذوقية للموسيقى والشعر..

وكان للرسول عند جده عبد المطلب مكانة خاصة.. فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليهم.. لا يجلس أحد عليه من بنيه إجلالاً له.. فكان الرسول يأتي وهو غلام فيجلس عليه ويأخذه أعمامه فيؤخروه عنه.. فيقول عبد المطلب - إذا رأى ذلك منهم - دعوا بني فوالله إن له لشأناً ثم يجلس معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.. فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين مات جده عبد المطلب وكفله عمه أبو طالب.. واصطحب معه الرسول في رحلته إلى الشام.. وحينما نزلا عند الراهب بحيرى أدرك بفراسته ما سوف يحظى به محمد من مكانة في قومه.. ثم حدثت حرب

(١) أشعار الترقيص عند العرب: سعيد الديوه جي - وزارة الإعلام - بغداد ص١٣.
(٢) أطفالنا في عيون الشعراء: أحمد سويلم ١١٤.

الفجار والنبى فى الرابعة عشرة من عمره.. وشهدها النبى وقال: كنت أنبل على أعمامى - أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها - وقيل فى هذه الحرب شعر كثير - ولابد أنه استمع إليه فى حينه - ومن ذلك ما قاله البراض:

وداهيــــة تهمّ الـنـاسَ قـــبلى
شددتُ لها - بنى بكر - ضلُوعى
هدمتُ بهـا بيـوتَ بنى كـلابٍ
وأرضـــعتُ الموالىَ بالضـــروعِ
رفـــعتُ له بذى طلاّل كـــفىّ
فـخـر يميـدُ كـالجذعِ الصـريعِ

وقال لبيد بن ربيعة:

أبلغ - إن عـرضت بنى كــلاب
وعــامــر والخطوب لهـا مـوالىِ
وبلّغ - أن عـرضت بنى نُمـيْـر
وأخـــوال القـــتـيل بنى هلالِ
بأن الوافــدَ الرحّـــالَ أمـــسى
مـقـيـمًـا عند تيـمنَ ذى طلالِ

وحينما تزوج الرسول بخديجة بنت خويلد.. ذكرت لابن عمها ورقة بن نوفل ما ذكر لها غلامها من قول الراهب.. وما كان منه إذ كان الملكان يظللانه فقال ورقة: لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة.. ثم جعل ورقة يستبطيء الأمر ويقول: حتى متي.. وأنشد يقول[1]:

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص١٩٥.

لججتُ وكنتُ فى الذكرى لجوجًا

لهمّ طالما بعثَ النشــيــجــاَ

ووصفٍ من خـديجةَ بعـد وصفٍ

فـقـد طال انتظارى يا خـديجـاَ

ببطنِ المكّتينِ على رجــائى

حـديثك أن أرى فـيــه خـروجـاَ

بما خــبــرتنى من قــول قسٍّ

من الرهبــانِ أكـرهُ أن يعـوجـاَ

بأن مـحـمـدًا سـيـسُود قـومًا

ويخصمُ من يكون له حـجـيـجـاَ

ويُظهـر فى البـلاد ضـيــاءَ نور

يقــيمُ به البــريةَ أن تموجــاَ

فـيلقى من يحــاربه خــســارًا

ويلقى من يســالمه فلوجــاَ

إلى آخر الأشعار التى نسبت إلى ورقة بن نوفل يؤكد بها نبوة محمد ﷺ.. ولا يمكن أن تسمع خديجة ذلك الشعر وتخفيه على زوجها.. بل كانت هذه الأشعار - أغلب الظن - تبعث الاطمئنان فى نفس خديجة بأن زوجها هو النبى المنتظر..

بعثة الرسول:

ويهبط جبريل على محمد ﷺ ويأمره بالقراءة ودعوة الناس إلى دين الله.. وتسرع خديجة إلى ابن عمها.. فيبشرها بالبشرى الحقيقية ويقول:

فإن يك حقا ياخديجة فاعلمى
حديثك إيانا فأحمدُ مرسلُ
وجبريل يأتيه وميكال معهما
من الله وحى يشرح الصدر منزلُ
يفوزُ به من فاز فيها بتوبةٍ
ويشقى بها العانى الغريرُ المضلّلُ
فسبحان من يهْوى الرياحَ بأمره
ومن هو فى الأيام ما شاء يفعلُ
ومن عرشُه فوق السماوات كلّها
وأقضاؤه فى خلقه لا تُبدّلُ

وما يهمنا فى هذه المرحلة هو موقف عمه أبى طالب منه ووقوفه إلى جانبه..

وأخبار ذلك متناثرة فى السيرة.. وفى البداية والنهاية وغيرهما من المصادر ومن ذلك أن الرسول ﷺ حينما أُمر بإنذار عشيرته الأقربين.. صدع بما أمره الله وذكر آلهتهم الوثنية وعابها.. فشكوه إلى عمه أبى طالب.. لكنه حال بينه وبينهم.. وحين حاول نصيحته قال الرسول ﷺ قولته المشهورة: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته.. فقال له عمه: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا..

وأنشد يقول له:

والله لن يصلوا إليك بجْمعهم
حتى أوسَّدَ فى الترابِ دفينا

فامضى لأمرك ما عليك غضاضةٌ

أبشـرْ وقـرّ بذاك منك عـيـونا

ودعـوتني وعلمتُ أنك ناصـحى

فلقـد صـدقتَ وكنتَ قِـدْمَ أمـينا

وعـرضتَ دينًا قـد عـرفتُ بأنه

من خـيـر أديان البـريةِ دينًا

لولا الملامـة أو حِـذارى سُـبَـةً

لوجـدتنى سـمحًـا بذاك مـبـينًا

وحاول أبو طالب أن يجعل قومه يحدبون على ابن أخيه فأنشدهم:

إذا اجتمعتْ يومًا قريش لمفخرٍ

فـعبدُ منافٍ سرُّها وصـمـيـمـهـا

وإن حصلت أشراف عبدِ منافِهاَ

فـفى هاشم أشـرافـهـا وقـديمُهـا

وإن فـخـرت يومًا فـإن محـمـدًا

هو المصطفى من سرِّها.. وكريمُها

تداعت قـريش غـثّـهـا وسـمـينُها

علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها

ويظل الوحى يهبط.. ويلقى محمد ﷺ من قومه الأذى والمقاومة.. فلما خشى أبو طالب دهماءَ العرب أن يعادوه.. قال قصيدته التى تعوّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها.. وفيها يقول داعيا إلى نصرة الرسول ﷺ - وهى قصيدة طويلة:

ولما رأيت القـوم لا ودّ فـيـهم
وقد قطعوا كلّ العُرى والوسائل
وقد صارحُونا بالعداوة والأذى
وقد طاوعـوا أمرَ العـدوِ المزايلِ
صبرتُ لهم نفسى بسمراء سمحةٍ
وأبيضَ عضْبٍ من تراثِ المقَاولِ
وأحضرتُ عند البيت رهطى وإخوتى
وأمسكت من أثوابه بالوصائلِ
أعوذ برب الناس من كل طاعنٍ
علينا بسوء أو ملحّ بباطلِ
كذبتم وبيت الله نُبذى محمدًا
ولماّ نطاعنْ دونه ونناضلِ
ونسْلمهُ حتى نُصرّع حولَه
ونَذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ
لقد علموا أن ابننا لا مكذّبُ
لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ فى أرومةٍ
يقصّر عنها سورةُ المتطاولِ
حدْبتُ بنفسى دونه وحميتُه
ودافعتُ عنه بالذُرى والكلاكلِ

وإن كان هناك من يشكك فى نسبة القصيدة ـ لعظمتها وقوتها ـ إلى عم الرسول أبى طالب ـ لكن المهم هنا أن الشعر كان ـ كما نرى ـ يسجل تلك المواقف التاريخية ـ خاصة موقف عمه أبى طالب منه..

وهذا حكيم بنى أمية بن حارثة بن الأوقص السّلمى يحاول أن يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة الرسول ﷺ وكان فيهم شريفًا مطاعا فيقول:

هل قـائل قـولاً من الحقّ قـاعـدٌ

عليه..وهل غضبان للرشد سامعُ

وهل سـيد ترجـو العـشيـرةُ نفعَـه

لأقصى الموالى والأقارب جـامعُ

تبرأتُ إلا وجـهَ من يملك الصبا

وأهجـركم مـا دام مـدلٍ ونازعُ

وأسلم وجــهى للإله ومنطقى

ولو راعنى عند الصـديق روائعُ

وهذا أبو قيسْ بن الأسْلَتْ.. وكان محباً لقريش وصهراً لها.. وكان يقيم عندهم السنين بامرأته.. وقد أنشأ قصيدة يعظم فيها الحرمة.. وينهى قريشاً عن الحرب والعداوة.. يقول فيها:

أعـيـذكمُ بالله من شـر صُنْعكم

وشـرِّ تَبـاغـيكم ودسِّ العـقـارب

مـتى تبـعثـوها تبـعثـوها ذمـيمـةً

هى الغـولُ للأقصين أو للأقـارب

تقطع أرحــامًـا وتهلك أمـــة

وتبرى السّديف من سنام وغاربِ

ألم تعلموا ما كان من حرب داحسٍ

فتعتبروا أو كان من حرب خاطبِ

وحينما لحق عمرو بن مرة الجهنى بالنبى ﷺ أعلن إسلامه فى قوله:

شــــهـــدتُ بأن الله حقٌ وأننى

لآلهـــة الأحـــجـــار أول تاركِ

وشمرت عن ساق الإزار مهاجرًا

إليكَ أجوبُ القفرَ بعد الدكادكِ

لأصحب خير الناس نفسًا ووالدا

رسولَ مليكِ الناسِ فوق الحبائك

فقال له النبى ﷺ: مرحبا بك يا عمرو بن مرة.. فقال له: ابعثنى إلى قومى يا رسول الله.. لعل الله يمن عليهم بى كما من علىّ بك.. فبعثه النبى ﷺ وقال: عليك بالرفق والقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبرا ولا حسوداً.

ويذكر صاحب السيرة.. وكذلك ابن كثير أن المسلمين حينما هاجروا إلى الحبشة كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة.. وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماشٍ وراكب فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة.. وتتابعت هجرة المسلمين حتى صار عددهم ثلاثة وثمانون..

وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبدالله بن الحارث بن قيس بن عدىّ.. حين استقروا آمنين هناك جوار النجاشى قال:

يا راكـبًـا بلغت عنى مـغلغلةً

من كـان يرجـو بلاغ الله والدينِ

كل امرىء من عباد الله مضطهدٍ

ببطن مكةَ مـقـهـورٍ ومـفـتـونِ

إنا وجـــدنا بلاد الله واســعـــةً

تُنجى من الذلّ والمخزاة والهونِ

إنا تبعنا رسول الله واطرحوا

قول النبى وعالوا فى الموازين

وكانت قريش قد أرسلت إلى النجاشى رجلينْ جلدين بهدف رد المسلمين وتسليمهم وهما: عبدالله بن أبى ربيعة - وعمرو بن العاص.. وكانا محمَّلينْ بالهدايا.. وحينما علم بذلك أبو طالب أرسل إلى النجاشى يحضّه على حسن الجوار للمسلمين قائلاً:

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفرٌ
وعمرو وأعداءُ العدو الأقاربُ
فهل نالت افعال النجاشىِّ جعفرًا
وأصحابَه أو عاق ذلك شاغبُ
تعلمّ - أبيت اللعن - أنك ماجدٌ
كريم فلا يشقى لديك المجانبُ
تعلم بأن الله زادَكَ بسْطةً
وأسباب خير كلها بك لاذبُ
وأنك فيضٌ ذو سجالٍ غريرةٍ
ينال الأعادى نفعَها والأقاربُ(١)

ثم يسلم عُمر وحمزة.. ولم تعد الدعوة سراً.. فاجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعون شيئاً لهم ولا يبتاعون منهم.. وكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا عليها وعلقوها فى جوف الكعبة.. وكان منصور بن عكرمة هو كاتب الصحيفة ويقال طلحة بن أبى طلحة..

(١) المجانب: الداخل فى الجوار أو الحى - لازب: لاصق.

وما يهمنا من هذا الخبر أن بنى هاشم وبنى عبد المطلب انحازا إلى أبى طالب ودخلوا معه فى شعبه.. وخرج عليهم أبو لهب عبد العزى قائلاً: «يعدنى محمد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت.. فماذا وضع فى يدى بعد ذلك..» ثم ينفخ فى يديه ويقول: تبا لكما.. لا أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد.. فأنزل الله تعالى قوله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وفى ذلك يقول أبو طالب:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا

نبيًا كموسى خُط فى أول الكتبِ

وأن عليه فى العباد محبةً

ولا خير ممن خصَّه الله بالحبِ

وأن الذى ألصقتمُ من كتابكم

لكم كائن نحسًا كراغية السَّقبِ

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى

ويصبح من لم يجْن ذنبًا كذى الذَنبِ

ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا

أواصرنا بعد المودة والقربِ

وترى أم جميل - حمالة الحطب - أبا بكر حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها فقالت: يا أبا بكرأين صاحبك فقد بلغنى أنه يهجونى.. والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.. أما والله إنى لشاعرة ثم قالت:

مذممًا عصينْا

وأمره أبيْنا

ودينه قليْنا

وحينما مُزقت الصحيفة فى جوف الكعبة وبطل ما فيها قال أبو طالب يمدح من مزقها:

جزى الله رهطًا بالحجون تتابعوا
على مـلأ يهـدى لحـزم ويرشـدُ
قعودًا لدى خطم الحجون كأنهم
مـقـاولـة بل هم أعـزّ وأمـجـدُ
أعـان عليـهـا كل صـقـر كـأنه
إذا ما مشى يرفرف الدرع أحردُ
من الأكرمين من لؤى بن غالب
إذا سيم خسْفًا وجهـه يتريدُ[1]

فعل ذلك أبو طالب على حين بكى حسان بن ثابت ـ المطعم بن عدى حينما مات ويذكر قيامه فى نقض الصحيفة بقوله:

أياعين فابكى سيد القوم واسفحى
بدمع وإن أنزفته فاسكُبى الدماَ
وبكىّ عظيمَ المُشعرين كليهما
على الناس معروفًا له ماتكلماَ
فلو كان مجدٌ يُخلدُ الدهرَ واحدًا
من الناس أبقى مجده اليوم «مُطعماَ»

وتتسع دائرة الإسلام.. ويسلم من المشركين كثيرون.. ومن كان شاعراً منهم يقبل على الرسول معلناً إسلامه بالشعر.. ومنهم مثلاً.. كعب بن

(١) المقاولة: الملوك ـ رفرف الدرع: ما بقى منه ـ والأحرد: بطىء السير لما عليه من لبس الحرب.

زهير في قصيدته الشهيره (بانت سعاد) .. وعمر بن الجموح الذى يهجو صنمه ويحمد الله الذى أنقذه مما كان فيه من الضلالة والعمى فيقول:

والله لو كنت إلهـــا لم تكنْ
أنت وكلبٌ وسط بئـر فى قـرنْ
أف لملقـاكَ إلهـا مـسـتـدَنْ
الآن فـتـشناك عن سـوءِ الغبنْ
الحـمــدُ لله العليِ ذى المنَن
الـواهـبِ الـرزاقِ ديـانِ الـديـنْ
هو الـذى أنقـــذَنـى مـن أنْ
أكـونَ فى ظلمـة قـبـرِ مـرتهنْ
بأحمدَ المهدىِ النبيِّ المرتهنْ(١)

وهذا أبو قيس بن أنس وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة .. وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها .. وأعلن أنه يعبد إله إبراهيم .. حتى قدم إلى الرسول ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وكان شيخاً كبيراً فقال:

يقـول أبو قـيس وأصـبح غـاديا
ألا ما استطعتم من وصاتى فافعلوُا
فـأوصـيكمُ بالله والبـر والتُـقَى
وأعـــراضكم .. والبـــرُّ بالله أولُ
وإنْ قومكم سادُوا فلا تحسدَنَّهم
وإن كنتمُ أهل الرياسة فاعدلُوا

(١) القرن: الحبل ـ مستدن: مستبعد ـ الغبن: السّفه.

ويقول أيضاً:

ونعلم أن الله لا شيءَ غـيــره

ونعلم أن الله أفـــضلُ هـاديَا

نعادى الذى عادى من الناس كلّهم

جميعًا وإن كان الحبيبَ المصافيَا

فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى

إذا هو لم يجـعل من الله واقـيـا

ولما أسلم النساء وهاجرن مع أزواجهن إلى المدينة.. ذكر ذلك الشعراء فى قصائدهم: فهذا أبو أحمد بن جحش يذكر هجرة أمه فى قوله:

لما رأتنى أم أحـــمـــد غـــاديا

بذمـة من أخشى بغيب وأرهبُ

تقـول: فـإمـا كنت لابد فـاعـلاً

فـيـمّم بنا البلدانَ ولتنأ يثـربُ

فقلتُ لها بل يثربٌ اليوم وجهنا

وما يشأ الرحمان فالعبدُ يركبُ

إلى الله وجهى والرسول ومن يقم

إلى الله يومًا وجـهـه لا يخـيَّبُ

ونتوقف عند هذه النماذج التى قصدنا بها سيادة الشعر فى التعبير عن مشاعر الإنسان العربى أمام أى موقف أو قضية..

ولابد أن القـارىء يشـاركنى الدهشـة لموقف أبى طالب من الإسـلام بالرغم من أن لسانه يبدو مؤمناً بخلاف قلبه.. وأن ما يقوله وما يتخذه من

المواقف لحماية الرسول ﷺ وصحبه إنما هو ترجمة حقيقية لقيم الإسلام وكم كان الرسول ﷺ يتمنى لو أن أبا طالب يدخل فى الإسلام.. والغريب أن أبا طالب يعترف بعدم قدرته على ذلك خوف (السّبة) على حد تعبيره أى الإحساس بالعار والنقص أمام قريش التى يسودها..

ولابد أن ما قيل من أشعار فى تلك الفترة - قبل أن يهبط الوحى بذم الشعراء المشركين - قد وصلت إلى أسماع الرسول وأعجب بها.. وهناك من الشواهد التى تؤكد قدرة الرسول على تذوق الشعر ونقده.. وما كان يمكنه ﷺ أن يتخلى عن هذه القدرة التى كانت سائدة فى مجتمع يعشق الشعر ويتخذه دليلاً على ثقافة الناس..

موقف الرسول من الشعر والشعراء

أحسب أننا بعد هذه الرحلة خلال علامات شعرية تتصل بالعقيدة الإسلامية.. يمكننا أن نضع يدنا على موقف الرسول من الشعر.. ونصحح مفهوماً ساد بين بعض المؤرخين أن الإسلام يذم الشعر والشعراء..

جاء فى (جمهرة أشعار العرب) للقرشى فى باب (النبى والشعر) قوله: ولم يزل النبى ﷺ يعجبه الشعر ويمدح به فيثيب عليه ويقول: هو ديوان العرب..

وهو القائل: إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا..

ويقول أيضا: الشعر كلام من كلام العرب جزل.. تتكلم به فى نواديها وتسلّ به الضغائن بينها.

ويقول كذلك: إنما الشعر كلام مؤلف.. فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه.

وكأن القضية هنا تتصل بما يتناوله الشعراء من المعانى والأغراض.. وليست فى الشعر ذاته لأنه سلاح ذو حدّين.

وحينما قال الرسول: إن من الشعر لحكمة.. كان تعليقاً على أبيات العلاء ابن الحضرمى التى قال فيها:

وحيِّ ذوى الأضغان تسْبِ قلوبهَم
تحيتك الحسنى فقد يرقع النَعلْ
فإن دحسُوا بالكره فاعفُ مكرمًا
وإن أخنسُوا عنك الحديثَ فلا تسَلْ
فإن الذى يؤذيك منه استماعُه
وإن الذى قالوا وراءَك لم يُقلْ

وفى تعليق الرسول إعجاب بحكمة الشاعر.. وتوضيح لتأثير الشعر فى النفوس.

وجاء فى لسان العرب فى مادة: شعر - رواية أخرى للحديث على هذا النحو: إن من الشعر لحكمة.. فإذا ألبسَ عليكم شىء من القرآن فالمسوه فى الشعر فإنه عربى..

وروى الترمذى عن جابر بن سمرة قال:

جالست النبى ﷺ أكثر من مائة مرة.. فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم..

ويذكر أن الرسول ﷺ كان يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه وينشد الشعر..

وفى أخبار النابغة الجعدى بالأغانى أنه أنشد النبى ﷺ قوله:

بلغنا السمـاء مـجـدُنا وجـدودنُا

وإنا لنرجـو فـوق ذلك مظهـرًا

فأعجب بهذا القول وقال: فأين المظهر يا أبا ليلى..

فقال: الجنة بك يا رسول الله.. قال: نعم إن شاء الله.. فقضى له بالجنة بسبب شعره.

وحينما اشتد هجاء المشركين له.. دعا حسان إلى هجائهم وقال له: أهجهم ومعك روح القدس.. وأوصاه أن يعود إلى أبى بكر ليعرف الأنساب ويستخدم ذلك فى أشعاره.

ولما أنشده كعب بن زهير قصيدته (بانت سعاد) لم ينكر عليه استهلال القصيدة بالغزل.. ولما وصل إلى قوله:

إن الرسـول لنور يسـتـضـاء به

مـهنَّد من سيـوفِ الهند مـسلولُ

قال له: من سيوف الله.. فأصلحها كعب..

وأنشد أحدهم النبى ﷺ قول سَحيم عبْد بنى الحسْحاس:

الحـــمـــد لله لا انـقطـاع لـه

فليس إحـســانه عنا بمقطوع

فقال: أحسن وصدق.. وإن الله ليشكر مثل هذا.. وإن سدَّد وقارب إنه لمن أهل الجنة..

ولم يقتصر تذوق النبى ﷺ لشعر المسلمين.. بل كان يستحسن أيضًا أشعار الجاهليين.. و من ذلك قوله: أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل..

وكان يعجب بشعر عنترة فى قوله:

ولقــد أبيتُ على الطّوى وأظلّه

حـــتى أنالَ به كـــريمَ المأكلِ

وكان يقول: ما وُصف لى أعرابى قط فأحببتُ أن أراه إلا عنتره

وعندما ذكر له قول أمية بن أبى الصّلْت:

زحلٌ وثورٌ تحت رجْل يمـينـه

والنَّسْـرُ للأخـرى وليثٌ يرصـدُ

قال: صدق.. هكذا صفة العرش.

كما وافق الرسول ﷺ أن ينظم الشعراء مواعظه وأحاديثه شعراً تسهيلاً لحفظها.. وكثيراً ما استأذنه الشعراء فى ذلك فأذن لهم واستمع إلى أشعارهم بعد نظمها..

ويروى أن قيس بن عاصم وفدمع جماعة من بنى تميم.. فدخل على الرسول ﷺ وعنده الصّلصال بن الدّلهمس.. فقال: يا رسول الله عظنا عظة ننتفع بها.. فوعظهم موعظة حسنة.. فقال قيس: أحب أن يكون هذا الكلام أبياتًا من الشعر نفتخر به على من يلينا وندخرها نعلمها أولادنا.. فأمر الرسول بمن يأتيه بحسان..

وهنا قال الصلصال: يا رسول الله قد حضرتنى أبيات أحسبها توافق ما أراد قيس.. قال: هاتها.. فقال:

تجنَّبْ خليطًا من مـقـا لكَ إنما

قرينُ الفَتى فى القبرِ ما كان يَفْعَلُ

ولابد بعـد الموت من أن تُعـدَّه

ليـوم يَنادَى المرءُ فيـه فيُقبلُ

وإن كنت مشغولاً بشىءٍ فلا تكنْ

بغيـر الذى يرضى به اللهُ تشغلُ

ولن يصحبَ الإنسان من قبل موته

ومن بعده إلا الذى كـان يعملُ

ألا إنما الإنســانُ ضـيفٌ لأهله

يقــيمُ قليــلاً بينهم ثم يرحلُ

فأعجب بهذه الأبيات..

ومن الأخبـار الطريفـة أن ولداً جاء الرسول ﷺ يشكو أباه فى مالٍ له فأنشده الأب أبياتاً قالها فى ابنه وهى:

غَـذَوتُك مـولودًا وعُلتُك يافـعًـا

تُعَلَ بما أحنو عـليك وتنهلُ

إذا ليلةٌ نابتك بالسُـقم لم أبتْ

لسُــقــمكَ إلا ســاهرًا أتململُ

تخافُ الرَّدَى نفسى عليكَ وإنها

لتـعلمُ أن الموتَ حـتْمٌ مـوكَلُ

كـأنى أنا المطروقُ دونَك بالذى

طُرقتَ به دُونى فـعـينىَ تَهملُ

فلمـا بلغت السّنّ والغـايةَ التى

إليـها مدى مـا كنتُ فيك أؤمّل

جـعلتَ جـزائى غلظةً وفظاظةً

كـأنك أنت المنعمُ المتـفـضلُ

فليـــتك إذ لم ترْعَ حقَّ أبوتى

فعلت - كما الجارُ المجاورُ يفعلُ

فبكى الرسول ﷺ ثم أخذ بتلابيب ابنه وقال له: اذهب فأنت ومالُك لأبيك..

وقدم عمرو بن سليم الخزاعى على الرسول ﷺ - وكانت خزاعة حلفاء له.. فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حى خزاعة يقال له: بنو كعب.. فقتلوا فيهم.. وأخذوا أموالهم.. فقدم عمرو مستنصراً يقول:

يا رب إنى ناشـدٌ مـحـمـدا

حلفَ أبينا وأبيـــه الأتلدا

نحن ولدناهم فكانوا ولدَا

ثمتَ أسْلمنا فلم ننزعْ يدَا

إن قريشًا أخلفوك الموعدَا

ونقضوا ميثاقك المؤكدَا

وقـتلونا رُكـعًا وسُـجّـدا

وزعموا أن لست تدعُـو أحدَا

وهم أذل وأقل عــــددا

فـانصـر هداك الله نصـرًا أيّدَا

وادع عـبـاد الله يأتوا مـددًا

فـيـهم رسـول الله قـد تجـردًا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ ونظر إلى سحابة وقال: والذى بعثنى بالحق نبيًا إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب.. وخرج بمن معه لنصرهم[1]

وحينما دخل الرسول ﷺ مكة فى عمرة القضاء.. أذن لابن رواحة أن يمشى بين يديه وينشد..

خلوا بنى الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيلُ الهامَ عن مقيله

وُيذهلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة.. بين يدى رسول الله ﷺ وفى حرم الله تقول الشعر! فقال رسول الله: خلّ عنه يا عمر.. فهو أسرع فيهم من نضْح النّبل..

وبعد وفاة الرسول ﷺ مر عمر بالمسجد فوجد حسان ينشد فيه.. فأنكر عليه عمر.. فقال حسان:

لقد كنت أنشد فيه.. وفيه من هو خير منك

ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك الله.. أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عنى.. اللهم أيده بروح القدس.. فقال: نعم!

....

ذلك طرف من مواقف كثيرة تدل على أن الرسول ﷺ لم يكن بعيداً عن الثقافة العربية السائدة المتمثلة فى تذوق الشعر وتقدير مكانته وما كان له أن

(١) الجمهرة ص٣٣.

ينكر ذلك أو يجنب فنا جميلاً تفخر به العرب وتتفرد به بين الحضارات المتاخمة..

وحينما يرى الرسول فى الشعر - ديوان العرب - أو ينظر إليه على أنه حكمة وجمالاً وسحراً.. إنما يعترف بتأثير هذا الفن فى الشعور الإنسانى وما كان له أيضاً أن ينكر هذا الجمال وهذا السحر.. وهو الرسول الذى يحمل فى داخله جمال الخلق.. وجمال النفس.. وحنان الأب.. وعذوبة المعشر.

نظر الرسول ﷺ إلى الشعر إذن على أنه قيمة إنسانية فنية يمكنها أن تساعد فى إذ كاء الروح.. وطهارة النفس.. وإصلاح المجتمع ونشر القيم.. فاستعذب إنشاده وشجع عليه.. وجعله سلاحًا من أسلحة محاربة المشركين.. ونوعًا من أنواع الجهاد فى سبيل الله.. وأحياناً نظر إليه على أنه أوقع من السّيف والنبل..

لكن الرسول نفسه لم يكن شاعراً.. وهذا لا يقلل من قدر أى إنسان فما كان العرب كلهم شعراء..

لقد نشأ الرسول فى مجتمع لم يكن متزمتاً مع الشعراء.. بل كان سعيداً بهم.. بل كانت القبيلة التى تخلو من الشعراء.. قبيلة ضعيفة مهملة فى طى النسيان.. لأنها تفقد لسانها..

لكن هذا المجتمع نفسه كان يقدر الفصاحة والبلاغة حتى لو جاءت نثراً.. وقد عرف المجتمع الجاهلى عدداً من الفصحاء والبلغاء ولم يكونوا شعراء مثل أكثم بن صيفى وغيره.. مما يؤكد احتفاء المجتمع بكل ما يحمل قيم اللغة العربية..

وقد تجلت فصاحة الرسول ﷺ فى أقواله وخطبه.. ولم يكن راوية ولا

يتمتع بحافظة شعرية.. ولم يكن ينشد بيتاً واحداً من الشعر تاماً على وزنه وربما أنشد صدر البيت أو عجزه فحسب.. ومن ذلك أنه كان يقول: أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ثم يسكت عن عجز البيت

وعن عائشة.. إنه كان يتمثل من الشعر ببيت طرفة بن العبد هكذا:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله..

فيقول الرسول: إنى لست بشاعر.. ولا ينبغى لى..

وجاء عباس بن مرداس رسول الله ﷺ فقال له: أنت القائل:

فأصبح نهْبى ونهبُ العبيد

بين الأقرع وعيينة

فقال أبو بكر: أشهد إنك كما قال الله: وما علمناه الشعر وما ينبغى له..

ويذكر المؤرخون أنه لم يجر على لسانه ﷺ مما صح وزنه إلا البيت من الرجز المنهوك والمشطور ـ كما جاء فى البخارى ـ وهو:

أنا النبىّ لا كذبْ

أنا ابنُ عبدِ المطلبْ

ربما لأن الرجز فى أصله ليس شعراً.. إنما هو أقرب إلى السّمع ومنزلته بين الشعر والنثر.. حتى إن الخليل لم يعد المشطور منه شعرا..

أما أصحاب الرسول ﷺ فيقول المفضل الضبىّ عنهم: ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا وقد قال الشعر وتمثل به. ونجد شعر الصحابة مبثوثاً فى كتب التراث مثل العمدة والسيرة وجمهرة أشعار العرب وغيرها..

من هنا فحينما هبط الوحى على الرسول وسمعه العرب.. تولتهم حيرة شديدة.. وشغلوا أنفسهم بتصنيف ذلك الوحى.. وهل هو شعر أم نثر.. وهل محمد شاعر أم ساحر أم كاهن وما إذا كان هذا كلام بشر أو كلام غير البشر.. وهل الذى يوحى إلى الرسول إنس أو جن.. إلى آخر هذه الأسئلة التى أربكت عقولهم وأصابتهم بالحيرة والدهشة معا..

ويذكر ابن هشام أن الوليد بن المغيرة كان قد اجتمع إليه نفر من قريش.. وكان ذا سنّ فيهم.. وقد حضر الموسم فقال لهم:

- يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم هذا وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا.. فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً.. ويرد قولكم بعضه بعضا.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس.. فقل لنا وأقم رأيا نقول به..

قال: بل أنتم فقولوا.. أسمع..

قالوا: نقول كاهن..

قال: لا والله ما هو بكاهن.. لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن[1] ولا سجعه..

(١) الزمزمة: الكلام الخفى المهموس.

قالوا: فنقول مجنون..

قال: ما هو بمجنون.. لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: نقول شاعر..

قال: ما هو بشاعر.. لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر..

قالوا: فنقول ساحر..

قال: ما هو بساحر.. لقد رأينا السّحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم..

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة.. وإن أصله لغدق (رطب حلو المذاق) وأن فرعه لجناه... وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وعشيرته.!

فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره.. فنزل الوحي في الوليد بن المغيرة.:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ

عبس وبسر * ثُمَّ أدبر واستكبر * فقال إنْ هذا إلاَّ سحرٌ يؤثر * إنْ هذا إلاَّ قول البشر﴾(1).

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين فى أمة عربية فصيحة اللسان.. ديوانهم الشعر.. فانبهر العرب ببيانه.. وأذهلتهم بلاغته وفصاحته.

والغريب أن بعض المتعصبين حينما قرأوا الآيات التى تتصل بالشعر والشعراء أطلقوا أحكامًا جاهلة مفادها أن الإسلام يحارب الشعر على الإطلاق. و من ثم حدث لبس شديد فى الفهم فظن الناس أن القرآن قد عادي هذا الفن وقائليه..

لقد تأمل العرب أسلوب القرآن الكريم فوجدوه معجزاً فى حسن تأليفه.. والتئام كلماته.. وفصاحته.. ووجوب إيجازه.. وبلاغته الخارقة.. ومن ثم حاروا في تسميته.. فهو مخالف لأساليب كلام العرب شعراً ونثراً.. ويعبر الجاحظ عن ذلك في رسائله بقوله:

«لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة.. لتبين فى نظامها ومخارجها.. وفى لفظها وطبعها.. أنه عاجز عن مثلها.. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها.. و ليس ذلك فى الحرف والحرفين.. و الكلمة والكلمتين..».

ولو تتبعنا لفظة الشعر أو الشعراء.. أو الشاعر.. فى القرآن الكريم لوجدنا أنها وردت فى ستة مواضع.. يحكى القرآن فى خمسة منها ما حاول

(1) المدثر آية: 11 ـ 25.

المشركون إلصاقه برسول الله ﷺ من صفات كاذبة.. والقرآن يؤكد لهم أن الرسول ﷺ ليس بشاعر مثل شعرائهم.. ولا علُم الشعر.. وربما لا يذكر القرآن لفظ (شعر) إلا في آية واحدة في سورة ياسين ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾..

والمتأمل في آيات القرآن:

١ـ ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥].

٢ـ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤].

٣ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [ياسين:٦٩].

٤ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦].

٥ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠].

٦ـ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤١].

المتأمل في هذه الآيات يجد أنها لا تتحدث عن الشعر في حد ذاته.. ومعظمها ينفي عن الرسول ﷺ صفة الشاعر.. وأنه رسول يأتي بشيء غير الشعر المألوف المعروف عند العرب.. ويعبر عن أمور تختلف عما يعبر به الشعراء.. ويؤكد القرآن معرفة البشر وظنونهم في الذين يمارسون الشعر باعتباره فنا فيه مس من الجنون.. وتلك حقائق لو لصقت بصاحب الرسالة الإلهية تتناقض تماماً مع جوهر الرسالة والوحي.. كما أنه معروف أيضاً عن شعراء الجاهلية إسرافهم في اللهو والملذات المادية وشرب الخمر وذكر ذلك كله في أشعارهم في موضع الفخر.. وكل هذه الأمور مخالفة تماماً لرسالة محمد ﷺ «إن هو إلا ذكر وقرآن كريم».

ومن ثم فنفى الشعر عن الرسول ﷺ ليس من قبيل كون الشعر شراً أو أمراً غير مستحب.. ولكن لأن الشعر الذى ساد وقتئذ لا يجوز أن يكون هو أسلوب الرسالة فلينشد الشعراء ما يشاءون - ولابد أن الشاعر الذى يعلن إسلامه سوف يعبر عن هذه النقلة النوعية فى أسلوب تعبيره من خلال القيم الجديدة التى تتاسب مع الرسالة الجديدة.

نخلص من هذا أن آيات القرآن الكريم لا تأمر المسلمين بالكف عن الشعر وأن الرسول ﷺ - بالرغم من كونه ليس شاعراً - كان يشجع الشعراء وينتقدهم.. ويدلى برأيه في أشعارهم ويحضّهم على الرد على المشركين - كما سوف نرى - ويقيم لحسان منبراً فى المسجد لينشد شعره.. والمسجد خصص للعبادة.. فإذا أضيف إليه قول الشعر.. فإنما ينفى كل ظن بحرمة قول الشعر.. ويستمع لكعب بن زهير فى (بانت سعاد) بادئا إياها بالغزل.. ولم ينكر ذلك.. و.. و.. مما يؤكد موقف الرسول والإسلام من قول الشعر.. وإبداعه.. والاستماع إليه والتقاط الشواهد اللغوية منه باعتباره الفن (الثقافى واللغوى) عند العرب بعد الإعجاز الأسلوبى القرآنى.. وحسبنا أن نسوق هنا كيف وصف ابن خلدون القرآن فى مقدمته.. فقال:[1]

«وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفيْن (الشعر والنثر) وليس يسمى مرسلا مطلقاً ولا مسجعًا بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية.. وهو معنى قوله ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر ٢٣].

(١) المقدمة ص ٦٤٧.

وقـال ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ [الأنعام ٩٧] .. ويسمى آخر الآيات فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلزم فى السجع ولا هى قواف.. وأطلق اسم المثانى على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثانى.. ... إلخ.

....

وأحسب أنه وصف لا يقترب من ساحة الشعر وقتئذ.. ولا من ساحة النثر الفنى كذلك.. ولهذا نفى عنه أسلوب الشعر..

•••

المشهد الشعرى فى صدر الإسلام

جاء فى مقدنة ابن خلدون:

إن الشعر ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم.

ثم يقول:

ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه.. فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً.. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وخطره.. وسمعه النبى ﷺ وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه...

على أن ابن خلدون نفسه.. يفضل - فى موضع آخر[1] شعر الإسلاميين على شعر الجاهلين فى حوار بينه وبين أبى عبدالله بن الخطيب وزير الملوك والأندلس من بنى الأحمر.. يقول:

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر.. وهو إعطاء السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلين فى منثورهم ومنظومهم.. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب والأحوص وبشار.. ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية فى خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة فى البلاغة

(١) المقدمة ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية.. فى منثورهم ومحاوراتهم.. والطبع السليم.. والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما لكونهما ولجت فى قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم.. وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية..

ففى الفقرة الأولى يعتقد ابن خلدون - مع من يعتقدون أن الشعر قد ضعف وخبت جذوته بظهور الإسلام لأن الشعراء فوجئوا بأسلوب القرآن.. فوجدوا أنهم يملكون أسلوباً أضأل كثيراً من هذا الأسلوب.. فعزف الشعراء عن ذلك الفن الذى طالما استأثر باهتمامهم وحبهم.

وفى الفقرة الأخرى يؤكد ابن خلدون علوّ الطبقة البلاغية لدى الشعراء الإسلاميين لاستفادتهم من أسلوب القرآن والحديث.

وقد اختلف كثير من المؤرخين حول هذه القضية.. ويمكننا القول أن قيمًا جديدة بدأت تدخل إلى المجتمع بدخول الإسلام.. وانعكس ذلك على الشعر.. ولأن الشعراء كانوا يستلهمون فى أشعارهم تلك القيم والمعانى الإسلامية الجديدة.. فقد ظن الكثيرون أن الشعراء إنما يريدون محاكاة الأسلوب القرآنى فعجزوا عن ذلك وضعف شعرهم.

لكن الإنصاف يقتضى بنا أن نؤكد ثراء المشهد الشعرى بظهور القرآن.. والذى كان فى أحد جوانبه تلك المناقضات والمبارزات الشعرية بين شعراء مسلمين وشعراء مشركين.. ولا شك أن هذا الشكل من الشعر يجاهد كل فريق من شعرائه بإفحام الفريق الآخر والتفوق عليه بلاغياً وشعرياً.. فمن

أين يضعف الشعر وفى عنقه مسئولية الدفاع (البلاغى) أو الهجاء (البلاغى).

ولكى نحيط بهذا المشهد الشعرى فنحن أمام ثلاث جماعات من الشعراء.

١ - شعراء مخضرمون عاشوا الجاهلية والإسلام.. واستوعبوا تأثيرات الدين الجديد فى أشعارهم.

٢ - شعراء أطلق عليهم - شعراء الدعوة الإسلامية - وهم الذين وقفوا ينافحون عن الإسلام ويردون على هجاء المشركين - وهم حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك.

٣ - شعراء أنطقتهم الغزوات - وربما لم يكن لبعض منهم عهد بالشعر من قبل.

وسوف نتناول كل فريق من هؤلاء الشعراء على حدة لنتعرف على تأثير الإسلام فى أشعارهم.. وموقف الرسول منهم.

أولاً: الشعراء المخضرمون:

يطلق مصطلح - الشعراء المخضرمون - على هؤلاء الشعراء الذين عاشوا الجاهلية وكان شعرهم يعبر بصدق عن المناخ الثقافى والاجتماعى فى البيئة العربية ثم عمروا وعاشوا صد رالإسلام وربما لعصور بعده.. فنفذ الدين إلى نفوسهم الشفافة وواكبوا العقيدة الجديدة وتأثروا بها.. ووضح ذلك فى أشعارهم..

والخضرمة فى اللغة لها أكثر من معنى.

فبئر خِضرم: أى كثيرة الماء.. وماء مخضَرم: كثير

وناقة مخضرَمة: قطع طرف أذنها وهى سمة جاهلية.

والمخضرمة من النوق والشاء.. المقطوعة نصف الأذن.

وكان الناس فى الجاهلية يخضرمون إبلهم فلما جاء الإسلام أمرهم النبى ﷺ أن يخضرموا من غير الموضع الذى يخضرم منه أهل الجاهلية.

وأصل الخضرمة أن يجعل الشئ بين بين.. ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم.. لأنه أدرك الخضرمتين الجاهلية والإسلامية.

ورجل مخضرم: إذا كان نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام.

وتأويل مخضرَم عند البعض أنه قطع عن الكفر بالإسلام(١).

ومن ثم يطلق ـ الشعراء المخضرمون ـ على هؤلاء الشعراء الذين عاشوا الجاهلية والإسلام.. ومنهم:

١ـ لبيد بن ربيعة:

وهو أحد شعراء الجاهلية المعدودين.. وأشرف الشعراء المجيدين الفرسان المعمرين.. وفد على الرسول ﷺ فى وفد من بنى كلاب ـ بعد وفاة أخيه أربد ـ وعامرين الطفيل.. فأسلم وهاجر وحسن إسلامه.. ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب.. ويقال إنه مات فى خلافة معاوية.

وما يعنينا حينما نتناول شعر لبيد أن نفرق بين شعره الجاهلى وشعره الإسلامى وهذا الأمر اختلف فيه كثيرون.. وهناك دراسات معمقة اجتهد أصحابها فى إبراز ملامح كلا الجانبين من شعره(٢).

---

(١) لسان العرب مادة خضرم.

(٢) انظر: العصر الإسلامى شوقى ضيف ـ لبيد: د. يحيى الجبورى ـ الأغانى للاصبهانى ـ الإسلام والشعر د. سامى العانى.

ولا يكاد شعره الجاهلى يخرج عن تلك الأغراض السائدة مثل المديح والهجاء والفخر.. وقد كان شديد الفخر بآبائه وأجداده.. ويتجلى ذلك فى معلقته الشهيرة بعد أن يصف الديار والأطلال البالية:

إنا إذا التـقت المجـامعُ لم يزلْ
منـا لزازُ عظيـمـةٍ جَـشّـامُـهـا
ومـقسّمٌ يعطى العشـيرةَ حقّها
ومُـغَذْمـرٌ لحـقـوقـهـا هَضّـامُـهـا
فضلاً وذو كرمٍ يُعين على الندى
سـمحٌ كـسوبُ رغـائب غنّامُـهـا
من مـــعـــشـــر سَنّتْ له آباؤهم
ولكل قـــوم سُنّةٌ وإمـــامُـــهـــا
لا يطبـعـون ولا يبـور فـعـالُهم
إذ لا يميلُ مع الهوى أحـلامُـهـا
وإذا الأمـانةُ قُسّمتْ فى معشرٍ
أوفى بأوفـر حظنا قـسّـامُـهـا
فـبنى لنا بيـتًـا رفـيـعًـا سـمْكُه
فسما إليه كـهلُها وغُلامُـهـا[1]

وها هو يعيّر عُيَيْنَةَ بنَ حصن الفزارى ويحقره على هزيمة قومه ويفخر هو بانتصار قومه فيقول:

رأيتُ ابن بدر ذُلّ قومك فاعترف
غداةَ رمى جحشٌ فأفْوق مـالكاَ

(١) اللزاز: الملازم للشئ. جشامها: من التجشم أى ركوب الخطر.

بخـيـركمُ نفـسًـا وخـيـركمُ أبًا
أعـزُّهم حـيـا عليـهم.. وهالكاً

ويذكر مزهواً فوز قومه فى معركة الشّعْب فيقول:

مناحـمــاةُ الشّـعبِ يوم تواكلتْ
أســدٌ وذبيــانُ الصّــفــا وتميمُ
فـارتث كلْمـاهُم عـشيـةَ هزْمِـهم
حيٌ بمنعــرجِ المسـِيلِ مــقـيـمُ

وقال يبكي دياره حينما رحل عنها إلى اليمن:

بـكـتـنـا أرضُـنـا لمـا ظَـعَـنّـا
وحـيّـتنا سُـفَـيْـرةُ والغـيـامُ
مـحلُّ الحيّ إذ أمـسوْا جـمـيـعًـا
فـأمــسى اليــومَ ليس به أنامُ

وكان يحمل فى داخله حساً واعيا بالموت وزوال المجد الدنيوى.. فحينما هلك النعمان بن المنذر أنشد يرثيـه رثاء مرا.. لكنه قال فيما قال بنظرة المتأمل للحياة والموت:

وأمـسي كـأحلام النيامَ نعيمُهم
وأى نعــيمٍ خلتَـــهُ لا يزايلُ
تَرُدّ عليـــهم ليـلةٌ أهلكتـــهمُ
وعـام وعـام يتـبعُ العـامَ قـابلُ
ألا كل شئ مـــا خـــلا الله باطلٌ
وكل نعــيم لا مـــحـــالة زائلُ

وكلُ أناس سوف تدخل بينهم

دُويهيةٌ تصفرّ منها الأناملُ

وكل امرئ يوما سيعلمُ سَعيَه

إذا كُشفتْ عند الإله المحاصلُ

ولولا اقتران هذه القصيدة بدلائل موثوقة بشعر لبيد الجاهلى.. لما تردد الدارس فى ضمها إلى شعره الإسلامى.. بدليل قوله ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطلُ.

فإذا انتقلنا إلى قسمة الإسلامي وجدناه - بعد أن قرأ القرآن الكريم - قد تهذب فى لفظه.. ورق فى معانيه.. وأكسب شعره طلاوة وعذوبة أو على حد قول ابن سلام:

كان عذب المنطق.. رقيق حواشى الكلام.. وكان مسلماً رجل صدق.

ويتضح ذلك فى مراثيه لأخيه أربد.. وفيها يقول:

بَلينا.. وما تبلى النجومُ الطوالعُ

وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ[1]

فلا جزعٌ إن فرَّق الدهرُ بيننا

وكلُ فتى يومًا به الدهرُ فاجعُ

وما الناس إلا كالديار وأهلها

بها يوم حلّوها وغدْوًا بلاقعُ

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

يحورُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ

---

(١) المصانع: الأبنية الضخمة.

وما البر إلا مضمراتٌ من التُقى

ومـــا المال إلا عــاريات ودائعُ.

ولنا أن نتأمل الفرق بين مرثيته السابقة فى النعمان بن المنذر ومرثيته هذه فى أخيه.. وكيف عذب منطقه.. ولان أسلوبه.. واستلهم من القرآن معانيه.. وليس معنى ذلك أنه وقف عند ظاهره الألفاظ الإسلامية (البر) - (ودائع)... وإنما نرى الإسلام وقد تغلغل فى وجدانه وامتزج بدمه فى شعره.. وأمامنا رواية فى ديوانه تبين وفادته إلى المدينة مع جماعة من قيس حين اشتد الجدب على مضر وتذكر الرواية أنه أنشد الرسول ﷺ أبياتاً يتوسل إليه فيها أن يدعو الله لهم بالسُّقيا ويبين ما أصاب قومه من الأذى والجهد.. فيقول:

أتيناك يا خـيـرَ البـريةِ كلِّهـا

لتـرحـمنا مما لقـينا من الأزْلِ

أتيناك والعـذراءُ يدمى لبـانُهـا

وقد ذهلتْ أم الصبىّ عن الطفلِ

ولا شئ مما يأكل الناس عندنا

سوى العلهز العامىِّ والعبهر الفسْلِ

وليس لنا إلا إليك فــــرارنا

وأين يفـر الناسُ إلا إلى الرسل[1]

فـان تدع بالسقـيا والعـفـو تر

سلِ السماءُ لنا والأمر يبقى على الأصلِ

(١) الأزل: ضيق العيش - العلهز: طعام يؤكل فى المجاعات - العبهر: النرجس والياسمين - العامى: الحولى - الفسل: الذى لا يؤكل .

وهذا نموذج آخر من قصائده التى تتجلى فيها المعانى الإسلامية:

إنما يحـــفظ التّـــقى الأبرارُ
وإلى الله يســتــقــر القـــرارُ
وإلى الله ترجـــعـــون وعند الله
وردُ الأمــــور.. والإصــــدارُ
كل شيئ أحـصى كـتـابًا وعلمًا
ولـديـه تجـلـت الأســـــرارُ

أو يقول فى رثاء أخيه أيضا رافضاً الاستسلام والكسل والتردد:

وإذا رمت رحـــيـــلاً فـــارتحلْ
واعْص مـا يأمـرُ توصيمَ الكسلْ
واكـذب النفسَ إذا حـدثتـهـا
إن صـدق النفسِ يزرى بالأملْ
واضـبط الليل إذا طال السُّـري
وتدجّي بعـد فـورٍ واعـتـدلْ

وهو القائل معترفاً:

الحــمــد لله إذ لم يأتنى أجلى
حتى كسانى من الإسلام سربالاَ

لقى الإسلام إذن فى وجدان لبيد أصداء كثيرة من الرضى والاطمئنان والإيمان ولأنه شاعر كبير.. سار شعره على كل لسان.. وأعجب به الرسول والمسلمون لأنه نهل الكثير من القيم الإسلامية الروحية فلونت شعره بلون جديد.. ولا شك أن نظرة تأملية خلال قسمى شعره تؤكد لنا هذه النقلة على المستوى الفنى واللفظى والبلاغى.. ومن ثم شكل لبيد جانباً مهماً فى الشمهد الشعرى الإسلامى.

٢.الحطيئة:

اختلف الرواة على حسن إسلامه.. كما اختلفوا على شعره الجاهلى والإسلامى ومكانته بين الشعراء.. فقد ذكر له القرشى فى جمهرته قصيدة فى (المشوبات).

نأتك أُمـــامـــةُ إلا ســـؤالاَ

وأبْصــرت منهــا بعينٍ خــيــالاَ

ويقول عنه ابن قتيبة: هو جاهلى الإسلام ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة الرسول ﷺ لأنى لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب إلا أنى وجدته يقول فى أول خلافة أبى بكر حين ارتدت العرب:

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرًا

فيالهفتى ما بال دينِ أبى بكر

أيورثهـــا بكرًا إذا مـــات بعـــده

فتلك وبيت الله قـاصمـة الظهرِ

ويقول ابن قتيبة تعليقاً على ذلك:

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله (أطعنا رسول الله) قومه أو العرب.. وكيف ماكان فإنه كان رقيق الإسلام لئيم الطبع.

ويوافقه فى ذلك الأصبانى فى أغانيه حيث يقول: هو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم .. متصرف فى جميع فنون الشعر.. مجيد فى ذلك أجمع.. وكان ذا شر وسفه ونسبه متدافع بين العرب وكان ينتمى إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين.. وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وقيل إن الخطيئة غلب عليه ولقب به لقصره وقربه من الأرض.

وقد ولد الحطيئة لأمة تسمى الضرّاء كانت لأوْس بن مالك العبْسى ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه.. فجعله ذلك قلقًا مضطرباً عدوانيا فى هجائه.

وحينما أضاء الإسلام جزيرة العرب.. لم يسارع الحطيئة إليه.. ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول ﷺ بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب أو تأخر فى ذلك حتى توفى الرسول ﷺ.

على أن موقفه من عمر بن الخطاب فيما بعد حين هجا الزبرقان يؤكد إسلامه وفى ذلك يقول:

ولما أن مدحتُ القوم قلتم
هجوت ولا يحل لك الهجاءُ
ألم أك مسلمًا فيكون بينى
وبينكم المودة والإخاءُ
ولم أشتم لكم حَسَبًا ولكن
حدوْتُ بحيث يُستمع الحداءُ

فهو هنا يذكر حرمة الإسلام ويحتج بها.

بل نراه في مديحه يذكر جزاء الله لممدوحه علي ما يقدمه من بر:

فليجزه الله خيرًا من أخى ثقة
وليهده بُهدى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله:

الحمد لله إنى فى جوار فتى
حامى الحقيقة نفّاع وضرارِ

ويعترف أبو عمر بن العلاء بأن العرب لم تقل بيتًا أصدق من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهبُ العــرف بين الله والناس

ويذكر بعض القيم الإسلامية في شعره:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ
ولكن التــقيَّ هو السّــعــيــدُ
وتقـوى الله خـيــرُ الزادِ ذخـرًا
وعند الله للأتقى مـــــزيدُ

أو يقول:

ألم أك مسكينًا إلى الله مسلمًا
على رأسه أن يظلم الناس زاجره

وبالرغم من إسلام الحطيئة فهو يمتلك لساناً بذيئاً هاجياً.. هجا به أمه وهجا نفسه:

أرى ليَ وجـهًا شـوَّه الله خُلْقَـه
فـقُـبِّحَ من وجهٍ وقُـبِّح حامله

ومع هذا فنحن لا نستطيع أن نغفل وجود الحطيئة في المشهد الشعرى فهو شاعر كبير مخضرم.. وإن لم يكن شعاع الإسلام واضحاً في أشعاره.

٣. العباس بن مرداس:

أمه الخنساء الشاعرة المخضرمة.. وكان هو فارسًا شاعراً سيداً في قومه.. أدرك الجاهلية والإسلام.. وفي خبره في الأغاني يقول:

كـان لأبى صنم اسـمـه - ضَمَـار .. فلمـا حـضـره الموت أو صـانـى به وبعبادته والقيام عليه .. فعمدت إلى ذلك الصنم فجعلته فى بيت .. وجعلت آتيه فى كل يوم وليلة مرة .. فلما ظهر أمر رسول الله ﷺ سمعت صوتاً فى جوف الليل راعنى يقول:

قل للقـبــائل من سُلَيْم كلهــا
هلك الأنيسُ وعـاش أهلُ المسـجـدِ
إن الذى ورث النبــوة والهــدى
بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى ضـمـار وكـان يعبـد مـرة
قـبل الكتـاب إلى النبى مـحـمـدِ

فكتمتُ الناس ذلك .. وبعد غزوة الأحزاب ركبت إلى محمد ﷺ وانتهيت إليه وبايعته وأسلمت .. وانصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار(١).

ويروى أن النبى ﷺ قسم غنائم هوازن فـأكـثـر العطايا لأهل مكة .. فأعطي الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مـرداس عطايا فضل فيها الأقرع وعيينة على العباس فجاءه العباس وأنشده:

وكــانت نهــابًا تلافـيـتُـهـا
بكرّي علي المُهْـرِ في الأجْـرعِ
فـأصـبح نَهْبي ونهبُ العـبـيـد
بين عُـيَـيْـنة والأقـــرعِ
ومـا كـان حـصن ولا حـابسٌ
يفـوقـان مـرداس فى مـجـمـع

(١) أوردنا ملخصاً لقصة إسلامة خالية من الخرافة.

ومــا كنتُ دون امــرئ منهــمــا

ومـن تضـع اليـــــوم لا يُرفـعِ

والنهب هنا ـ هى الغنائم ـ فلما سمعها الرسول ﷺ قال: اقطعوا عنى لسانه وأمر بأن يعطوه من الشاء والنعم ما يرضيه ليمسك.. فأُعطي.. فاحتجت الأنصار على ذلك.. فجمعهم الرسول وأرضاهم.

وكان العباس حين أحرق صنمه وأسرع إلي الرسول.. أنشد:

لعمرىَ إنى يوم أجعلُ جاهدًا

ضـمـارًا لرب العالمين مـشاركـاَ

وتركي رسول الله والأوس حوله

أولئك أنصـــارٌ له مـــا أولئكاَ

كتارك سهْل الأرض والحزن يبتغى

ليسلك في غيبِ الأمور المسالكاَ

فــآمنت بالله الذى أنا عــبــدُه

وخالفتُ من أمسَي يريدُ الممالكاَ

* * *

نبـيّـا أتانا بعـد عـيسي بناطقٍ

من الحق فيه الفصل منه كذلكاَ

أمـينًا على الفرقان أول شـافع

وآخـر مـبـعـوث يجـيب الملائكاَ

وفى قصيدة أخري يقول العباس:

بلغ عـــبـــاد الله أن مـــحــــمــــدا

رســول الإله راشــدٌ أين يمَّمــا

دعـا قـومـه واسـتنصـر الله ربه

فـأصبح قد وافى الإله وأنعـمـاً

ومن هذه الأمثلة تتجلى لنا مواقف هذا الشاعر الذى كان يداعب الصنم ويقيم الوصية برعايته وعبادته.. ثم ها هو يسرع إلى نور الإسلام ويعبر عن ذلك فى أشعاره ليحتل جانباً فى ساحة الشعر..

٤ـ كعب بن زهير:

هو كعب بن زهير بن أبى سُلمى لم يأذن له أبوه بقول الشعر وهو غلام إلا بعد أن وضعه فى اختبار فنى وجعله يكمل معه قصيدة ـ ارتجالاً ـ فأذن له.

وتقول أخباره مع الإسلام.. إنه خرج مع أخيه بجُير متجهين إلى الرسول ﷺ فبلغا ـ أبرق العزّاف ـ بالقرب من المدينة.. فقال كعب لبجير: الحق أنت بالرجل وأنا مقيم هنا فانظر ما يقول لك.. فقدم بجير على رسول الله فسمع منه وأسلم وبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغـا عنى بُجَـيْـرًا رسـالةً

على أى شئ ويْبَ غيـرَك دلَّكاَ

على خُلُق لم تُلف أمّـا ولا أبًا

عليـه ولم تُدرك عليـه أخـًا لكاَ

سـقـاك أبو بكر بكأسٍ رويةٍ

فـأنهلك المأمـون منهـا وعلكاَ

فبلغت أبياته هذه رسول الله ﷺ فأهدر دمه.. فكتب إليه أخوه يخبره بذلك.. وقال: انج بنفسك.. ثم كتب إليه بعد ذلك: إن من شهد أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسوله قبل الرسول منه وأسقط ما كان قبل ذلك.. فلما بلغ ذلك كعبًا ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه.. فأسرع إلى الرسول حين صلى الصبح.. وجلس إليه فوضع يده في يده.. وكان الرسول لا يعرفه فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل عنه إن أنا جئتك به.. قال: نعم.. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.. وحاول رجل من الأنصار قتله.. فصاح الرسول: دعه عنك فإنه قد جاء تائبا.. فأنشد كعب قصيدته:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ
متيّم إثرَها لم يفد مكبولُ
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغنُّ غضيض الطرفِ مكحولُ
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً
لا يشتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ

وبعد أن استوفى غزله قال:

نُبِّئتُ أن رسولَ الله أوْعدني
والعفوُ عند رسولِ الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةَ
القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخذنيّ بأقوالِ الوشاةِ ولم
أذنبْ ولو كثرت فىّ الأقاويلُ

ثم يقول:

إن الرسولَ لنورٌ يُسْتضاءُ به
مهند من سيوف الله مسلولُ

في عُصبة من قريشٍ قال قائلهم
ببطن مكة لما أسْلمـوا زولوا

فقبله الرسول وحسن إسلامه..

ويقال إن الرسول قال له: لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل.. فقال:

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزلْ
في مقْنبٍ من صالحى الأنصارِ
ورثوا المكارمَ كابرًا عن كابرٍ
إن الخيار همُ بنو الأخيارِ
والناظرين بأعينٍ محمرَّةٍ
كالجمْر غيرِ كليلةِ الإبصارِ
والبائعين نفوسهم لنبيهم
للموت يوم تعانُقٍ وكرارِ
والذائدين الناسَ عن أديانهم
بالمشرفيِّ وبالقنا الخطّارِ
يتطهرون يرونه نسكاً لهم
بدماء من علقوا من الكفارِ

وبهذا احتل كعب بن زهير مكانه فى المشهد الشعري الإسلامى.

* * *

٥.النابغة الجعدى:

سُمى النابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله.. وهو عبدالله بن قيس العامرى.. شاعر عاش الجاهلية والإسلام وعمر طويلاً.. وكان فى

الجاهلية يتغنى بقومه وانتصاراتهم فى حروبهم ويهجو أعداءهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه فى إحدى المعارك.. وفى ذلك يقول فى أخيه:

فتى كملت أخلاقه غير أنه
جوادٌ فما يُبقي من المال باقياَ
فتى ثمّ فيه ما يسُرّ صديقهَ
على أن فيه ما يسوءُ الأعاديا

وفد النابغة مع قومه على الرسول سنة تسع للهجرة وأنشده يقول:

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرة نيراَ
وجاهدتُ حتى ما أحسّ ومن معى
سهيلاً إذا ما لاح ثمت غوّرَا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها
وكنت من النار المخوفة أوجراَ

فلما بلغت قصيدته قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدوُدنا
وإنا لنبغى فوق ذلك مظهراَ

قال الرسول ﷺ: فأين المظهر يا أبا ليلى فأجابه: الجنة.. فأعجب الرسول بشعره ومنطقه.

فقال له: لا يفضض الله فاك.

وأقام فى المدينة مهاجراً.. وجاهد فى حروب الفرس.. وكان فارسًا مغوراً.

وللنابغة أشعار كثيرة استلهمت روح الإسلام وقيمه.. وأكدت أن الشاعر يمتلك حساً يستوعب هذه القيم الجديدة. وذلك فى مثل قوله:

ولبست مِلْ الإسلام ثوبًا واسعًا

من سيب لا حرم ولا منان[1]

أو يصوغ هذه القيم فى أبيات يقول فيها:

الحمد لله لا شريك له

من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليلَ فى النهار وفى الليـ

ـل نهارًا يفرّج الظُلَما

الخافض الرافع السماء على

الأرض ولم يبن تحتها دعَما

الخالق البارئ المصور فى الأر

حام ماءً حتى يصير دماً

من نطفة قدّها مقدّرُها

يخلُق منها الأبشار والنَّسَما

ثم عظامًا أقامها عصبٌ

ثُمّتَ لحمًا كسَاه فالتأما

ثم كسَا الرأس والعواتق أبشارًا

وجلدًا تخاله أدما

والصوت واللونَ والمعايش والأخلاقَ

شتي وفرَّق الكلما

(١) مل: من - سيب: عطاء - حرم: مناع.

فـــائتـــمـــروا الآن مـــا بدا لكمُ
واعـتـصـمـوا إن وجـدتمُ عـصـمَـا

في هذه الأرض والسّـــمـــاء ولا
عـصـمـــةَ منه إلا لمن رَحِـمَـا

لقد وجد النابغة موضوعاته ومضامينه فى القرآن الكريم.. فأخذ ينهل منه ما شاء ويصوغه صياغة شعرية.. وهى صياغة - وإن كانت ضعيفة المستوى الفنى - لكنها تؤكد على أية حال تأثر الشعراء المخضرمين بالعقيدة الجديدة.. وتمثل قيمها ومعانيها ومواعظها.

٦. حُمَيْد بن ثَوْر الهلالى

ويكنى أبا المثنى.. وأبا الأخضر.. وأبا خالد..

وهو شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وقضى الشطر الأكبر من حياته فى الإسـلام ولذا عـده ابن سـلام وغـيـره من شـعـراء الطبـقـة الرابعـة الإسلاميين.

أدرك حميد عهد عمر بن الخطاب.. وتوفى على الأرجح زمن عثمان بن عفان.

يقول عنه الأصمعى: العظماء من شعراء العرب الإسلامين أربعة: راعى الأبل النميرى.. وتميم بن مقبل العجلانى.. وابن أحمر الباهلى.. وحميد الهلالى.

ويقول عنه المرزبانى: كان أحد الشعراء الفصحاء وكان كل من هاجاه غلبه..

وما يهمنا من أخبار هذا الشاعر أن أشعاره فى الجاهلية كانت تتسم

بالجزالة والصعوبة.. فلما دخل الإسلام اكتسبت ليونة وعذوبة.. كما أن معانيه اختلفت من الجاهلية إلى الإسلام.. فقد كان يقول مثلا:

وصهباءَ منها كالسَّفينة نضّجتْ
به الحملَ حتى زاد شهرًا عديدُها
طوت دون مثلِ القلبِ منها ألَقَّةَ
كأرديةٍ من بركةٍ تسْتجيدُها[١].

فلما أسلم على يد الرسول ﷺ قال:

أصبح قلبى من سُليمى مُقصدا
إن خطأً منهــا وإن تعــمّــدًا
فــحــمّل الهم كـــلازًا جلعـــدا
ترى العُليْـفىَّ عليــهـا مـؤْكَـدا
ونجَــــــــدَ المـاء الـذي تـوردا
تورد السَّـــيـــد أراد المرصَـــدا
حــــتي أرانا ربُنا مــحــمــدا
يتلو من الله كـــتــابًا مــرشــدًا
فلم نكذب وخـــررنا سُـــجَـــدا
نُعطى الزكـاة ونؤمّ المسـجـدا[٢]

وها هو حـينمـا سمع الرسول يقـول: (لو لم يكن لابن آدم إلا الصـحـة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً..) فأخذ المعنى وقال:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحةٍ
وحـسـبك داءً أن تصح وتسلمـا

---

(١) الصهباء: الناقة فيها حمرة وبياض وشبهها بالسفينة ـ الألفة: ما يلتف به الولد في الرحم.
(٢) الكلاز: اجتماع الشيء للشيء ـ الجلعد: العظيم الضخم ـ العليفي: رجل منسوب إلي علاف.

ولا يلبث العصران يومًا وليلة
إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

بل نسب إليه كذلك ذمه للبخل حين قال:

لقد أمرت بالبخل أم محمدٍ
فقلت لها حثِّى على البخل أحمدا
فإنى أمرؤ عودتُ نفسيَ عادةً
وكل امرئ جارٍ علي ما تعودا
أحين بدا فى الرأس شيبٌ وأقبلت
إليَّ بنو عيْلان مثنى.. ومُوْحَدا
رجوتِ سقوطي واعتلالى ونبْوتى
وراءَكِ عنى طالقًا وارحلى غدا

ويتخذ حميد فى مشهد الشعر الإسلامى مكانه اللائق.

ونكتفى هنا بهؤلاء الشعراء المشهورين من عدد كبير من الشعراء المخضرمين.. الذين أسلموا وأسهموا فى تكوين المشهد الشعرى الإسلامى..

ولاننسى فى غمرة احتفائنا بهؤلاء الشعراء الذى احتلوا مكانة مضيئة فى مساحة الشعر هؤلاء الشعراء المشركين.. الذين لم يسلموا.. بل ظلوا على عقيدتهم سواء أكانت وثنية أم يهودية أو حنفية.. وهم الذين ألقوا سهامهم الشعرية على الإسلام والمسلمين.. وبرز لهم شعراء المسلمين يردون عليهم.. وسوف تكون لنا وقفة أخرى فى هذا المشهد الذى يمكن أن يقترب من فن المناقضات أو المنافرات.. ونعترف أنهم - بالرغم من عدم إسلامهم - يمثلون جانباً مهماً من هذه الساحة الشعرية الواسعة.

إن هذا المشهد الشعرى يضم عدداً كبيراً من الشعراء الذين عبروا الجاهلية إلى الإسلام وقد نال بعضهم شهرة أدبية واسعة - كما ذكرنا - ولم ينل البعض الآخر تلك الشهرة ومن هؤلاء مثلاً: أبو الدرداء - عبدة بن الطيب - الحصين بن الحمام - النمر بن تولب - المخبّل السعدى - أبو ذئيب الهزلى - زيد الخيل - عبدالله بن الزبير - كعب بن الأشرف وغيرهم كثير.

ثانياً: شعراء الدعوة الإسلامية:

١. حسان بن ثابت:

هو أحد الشعراء الثلاثة الذين اصطفاهم الرسول ﷺ ليظلوا حوله يدعون بدعوته.. ويردون علي هجاء المشركين له وللمسلمين..

ففي حديثه ﷺ أنه قال في معرض هجاء المشركين: أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن.. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن.. وأمرت حسان بن ثابت فشفي واستشفى.

وحينما اشتد أذى قريش للرسول وأصحابه قال: ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم.. فقال حسان: أنا لها يا رسول الله.. فقال النبى: كيف تهجوهم وأنا منهم.. قال: أسلّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين.. فقال له: اهجهم ومعك روح القدس..

وكان الرسول ﷺ يقول عن شعر حسان: لهذا أشد عليهم من وقع النّبل.. أما حسان فكان أبوه ثابت بن المنذر من سادة قومه وأشرافهم.. وكانت أمه (الفريعة) خزرجية مثل أبيه.. وقد أسلمت حين أدركت الإسلام..

وكان حسان قبل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة.. والنعمان بن المنذر شأنه شأن كبار الشعراء فى زمانه..

ذكر المبرد أن أعرق قوم كانوا فى الشعر آل حسان.. فإنهم يعتدون ستة فى نسق واحد وكلهم شاعر وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن خزام.

وكان حسان فخوراً بنفسه معتزاً بشعره.. قال له أبو سفيان بن الحارث يوماً:

ألا من مــبلغ حــســان عنى
خلفتُ أبى ولم تخلف أباكــا

فأجابه على الفور:

لأن أبى خــلافــتُــه شــديدٌ
وأن أباك مــثلك مــا عــداكــا

ويبدو أن براعته - تلك فى الشعر - وإصابته فى يده.. جعلاه فارس معركة الشعر.. وليس فارس قتال بالسيف.. ولهذا وصفه البعض بالجبن والخذلان.. بالرغم من وصفه لشجاعة قومه وفى ذلك يقول:

لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودى

وأسلم حسان مع هجرة الرسول إلى المدينة وكان سباقًا إلى اعتناق الإسلام والقرب من الرسول ﷺ.

ولحسان مذهبه فى الشعر الذى يعبر عنه فى قوله:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كيْسًا وإن حُمقاَ
وإن أشــعــر بيت أنت قــائله
بيت يقــال إذا أنشــدته صــدقَــا

وهو لا يفعل مثل غيره من الشعراء فيسرق معانى الآخرين وإنما هو أمير نفسه:

لا أسرق الشعراء ما نطقوا

بل لا يوافق شعرهم شعرى

فهو لا يعمد إلى التكلف فى شعره ولم يلتزم مذهبًا معيناً مثل زهير والنابغة والأعشى بل كان يترك وجدانه على سجيته يعبر بتلقائية خاصة..

ونلاحظ أن شعره الجاهلى كانت تشوبه الحوشية والأخيلة البدوية وجزالة اللفظ.. وأقوى أشعاره آنذاك ما عارض به شعراء الأوس وما مدح به الغساسنة فهو يفعل كما يفعل الشعراء الجاهليون فى استهلال قصائدهم:

عفت ذاتُ الأصابع فالجِواءُ

إلى عذراءَ منزلها خلاءُ

ديار من بنى الحَسْحَاس قفرٌ

تعفّيها الروامسُ والسّماءُ

وكانت لا تزال بها أنيسٌ

خلالَ مروجِها نَعَمٌ وشاءُ

أو يقول:

ألم تسأل الربعَ الجديدَ التكلمًا

بمدفع أشداخٍ فبُرقة أظلما

أو يقول:

لمن منزلٌ عافٍ كأن رسومَه

خياعيلُ ريْطٍ سابرىَّ مرسّمِ[1]

(١) الخياعيل: جمع خيعل وهو الجلد - السابرى: نسبة إلى سابور - المرسّم: العلم المخطط.

وقد كتب حسان فى أغراض الشعر المختلفة ومنها الفخر فى مثل قوله:

ونحن إذا لم يبرم الناسُ أمرهم
نكون على أمرٍ من الحق مبرمِ
ولو وزنت رضوى بحلم سراتنا
لمال برضوى حلمنا ويلملم[1]

وكان ينشد قصائده بسوق عكاظ.. ويوما قضى النابغة فى الشعر للخنساء حين أنشدته وقال: والله لولا أبا البصير - الأعشى - أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس.. فغضب حسان لذلك وقال له: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال النابغة: حيث تقول ماذا.. فقال:

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعن بالضحَا
وأسيافُنا يقطرن من نجدةٍ دما

فقال له النابغة: يا ابن أخى إنك لا تُحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ويدخل حسان فى جاهليته ميدان المهاجاة والمناقضة.. ومن ذلك أنه قال يعير أبا قيس لما أصاب قومه فى يوم معبس ومضرس وينتهى إلى لون من الهجاء المشوب بالفخر..

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً
إذا ألقى بها سمعًا تُبينُ
قتلتم واحدًا منا بألفٍ
هلاَ لله ذا الظفرُ المبينُ

(١) رضوى - ولملم: جبلان.

وذلــك أن ألــفــكــمُ قــلــيــلٌ

لواحــدنا.. أجل أيضــا ومينُ

فــلا زلتم كــمــا كنتم قــديمًا

ولا زلنا كـــمـــا كنا نكونْ

ويقول فى هجاء مزينة التى كانت تحارب مع الأوس ضد الخزرج:

مُــزينَةُ لا يرى فــيــهــا خطيبٌ

ولا فلجٌ يطاف به خـــصـــيبُ

رجــال تهلك الحــسناتُ فــيــهم

يرون التيس كالفرس النجيبِ(١)

ويقول فى الغزل والخمر:

كـــأن فـــاها ثغبٌ باردٌ

فى رصَفٍ تحت ظلال الغـمــامْ

شُـجت بصـهـبـاءَ لهـا سـوْرةٌ

من بيت رأس عتقت فى الخيامْ

عـتـقـهـا الحـانوتُ دهرًا فـقـد

مـرَّ عليـهـا فـرطُ عـام.. فـعـامْ

تشـربهـا صِـرْفًـا وممزوجـة

ثم نغني فى بيــوت الرُّخـــام

تدب فى الجــسم دبيـبًـا كـمـا

دبَ دبًا وسط رَقـــاقٍ هَيَـــامْ

(١) هكذا فى الديوان.. تحركت حركة الروى من الرفع إلى الجر.. (ديوان حسان: تحقيق د.سيد حنفى حسين).

كـأسـًا إذا مـا الشـيخ والى بهـا
خـمـسـًا تردى برداء الغـلامْ[1]

وديوان حسان مملوء بهذه الأشعار التى تتردد فيها الأساليب الجاهلية المألوفة لدى أمثاله من الشعراء..

وننتقل معه إلى شعره الإسلامى.. لنجده بعد أن كان يفخر بآبائه وقومه فخراً جاهليا خالصاً.. صار يفخر بفعال قومه فى الإسلام.. وحسن بلائهم فى نصرته والدفاع عنه.. وما قدموا لله وللرسول..

وسلمت ألفاظه من الحوشية.. وخالطها لين الحضارة.. وغلبت عليها الصبغة الإسلامية كتوليد المعانى من عقائد الدين الجديد.. واستعارة صيغ القرآن الكريم وكناياته وضرب أمثاله.. ووصف الشعائر الإسلامية.

وقف حسان إلى جانب الرسول ﷺ وصحابته وبعض خلفائه مؤيداً ومنافحاً وداعياً..

وهنا لنا أن نلاحظ ملاحظة مهمة.. تؤكد أهمية الشعر فى نشر الدعوة الإسلامية.. فالعرب قوم كونوا ثقافتهم وحضارتهم بأسلوب الشعر.. وهو سلاح إعلامي له تأثيره القوى.. فلا حرج أن يفتحوا آذانهم للشعراء حينما يغلقونها أمام تلاوة القرآن أو المواعظ النبوية..

ومن ثم كان ترحيب الرسول بالشعراء الذين أسلموا ووقفوا إلى جانبه.. يمثل أسلوباً سياسيا مهمًا فى نشر الدعوة.. فعن طريق الشعر ـ كذلك ـ يستطيع أن يقنع الناس بالدعوة.. وأن يرد على من يهجوه بالشعر.. ويؤكد القيم الإسلامية عن طريق الشعر.. ما دام العرب يصغون إلى هذا الفن أكثر مما يصغون إلى غيره..

(١) ثغب: الغدير بين الظلال ـ شجت بصبهاء: مزجت الخمر.

وكان أول شعر قاله حسان فى الإسلام حينما قال ضرار بن الخطاب شاعر قريش وفارسها:

تداركتُ سـعـدًا عنْوةً فـأخـذتُه

وكـان شـفـاءً لو تداركتُ منذرًا

ولو نلتُــه طُلت هناك جـراحُــه

وكـان حـريا أن يهـان ويهـدرًا

وهو يقصد هنا سعد بن عباده والمنذر بن عمرو. فأجابه حسان:

لستَ إلى سـعـد ولا المرء منذرٍ

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرا

فـــلاتك كـــالوسنان يحلم أنه

بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولاتكُ كـالثكلى وكـانت بمعـزلٍ

عن الثكل لو كـان الفـؤاد تفكّرا

ولاتك كالشاة التى كان حتفُها

بحفْر دراعيها فلم ترض مَحْفرا

ولاتك كـالعـاوى فـأقـبل نحـرَه

ولم يخْشه سهمًا من النَّبل مضمَرا

أتفـخـر بالكتّـان لما لبـسـتَــه

وقد يلبسُ الأنباطُ ريْطًا مقصَّرا

وكان أول فخر قاله في الإسلام.. حينما وفد الرسول ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام:

وثوى بمكة بضعَ عشرةَ حجة

يذكّر لو يلقى خليلاً مواتياَ

ويعرضُ فى أهل المواسم نفسَه

فلم ير من يُؤوى ولم ير داعياَ

فلما أتانا واطمأنت به النّوى

فأصبح مسرورًا بطيبة راضياَ

وأصبح لا يخشى عداوة ظالم

قريبٍ ولا يخشى من الناس باغيًا

بذلنا له الأموال من جُل مالنا

وأنفسنا عند الوغى والتآسيَا

نحاربُ من عادى من الناس كلّهم

جميعًا وإن كان الحبيب المصافياَ

ونعلمُ أن الله لا ربّ غيرهُ

وأن كتاب الله أصبح هاديَا

فهو يفخر ويدل فى رفق بما بذله قومه للرسول.. ونلاحظ أنه يؤرخ للهجرة فيذكر أن إقامة الرسول فى قومه بعد رسالته كانت بضع عشرة حجة..

وفى موضع آخر يقول عن قومه:

أولئك قومى فإن تسْألى

كرامٌ إذا الضيفُ يومًا ألمْ

يواسُون مولاهمُ فى الغنى

ويحمُون جارهمُ إن ظُلمْ

ليوثٌ إذا غضبُوا فى الحروبِ
لا ينكلونَ ولكن قُدُمْ[1]

ثم يقول:

فلما أتانا رسولُ المليك
بالنورِ والحقِ بعد الظُلمْ
ركنا إليه ولم نُوصه
غداة أتانا من ارضِ الحرمْ
وقلنا صدقت رسول المليك
هَلمَّ إليَنا وفينا أقمْ
فنشهد أنك عبد المليك
أُرسلت نَورًا بدين قِيَمْ
فنادِ بما كنت أخفيته
نداءً جهارًا ولا تكتتمْ
فنحن وُلاتُك إن كذبوك
فناد نداء ولا تحتشمْ
وإنا وأولادنا جُنةٌ
تقيك وفى مالنا فاحتكمْ

أما هجاء حسان فيقول عنه د. محمد طاهر درويش فى كتابة عن (حسان بن ثابت): لقد قضت البيئة والملابسات الخاصة التى تحيط بحسان أن يقول الشعر الهجائى فى جاهليته وإسلامه.. فهجا أعداء قومه قبل الإسلام فى سبعة عشر موضعاً من شعره.. ولكنه كان فى الإسلام محامى

(١) ينكلون: يجبنون - قدم: يقدمون ويهجمون.

الدعوة ووزير الدعاة.. يرد هجاء المشركين.. ويقود حملة التأديب عليهم.. ويشهِّر بمثالبهم.. ويرميهم بما يفدحهم.. وكانت المعركة طويلة حامية..

ومثال ذلك هجاؤه لأبى سفيان بن الحارث حيث يقول:

إن السَّنامَ وإن طالت شظيَّتُهُ
يعتادُ ذروتَه الأدواءُ والعَمَدُ
فاللوْم فيك وفى سمراءَ ما بقيتْ
وفى سُميةَ حتى ينفَد الأبدُ

وفى ذلك أيضا يقول:

وإن سنام المجدِ من آل هاشم
بنو بنت مخزومٍ ووالدك العبدُ
ولستَ كعباس ولا كابنِ أمِّه
ولكنْ هجينٌ ليس يُورَى له زَندُ

وهو هنا يهجوه - بعد أن عرف من أبى بكر أنسابه وبصر بمداخلها ودخائلها.. فهجاه بأمه سمراء.. وسمية أم أبيه.. ثم يتحدث عن آل هاشم - ويقصد النبى ﷺ وبنت مخزوم وهى فاطمة بنت عمرو بن مخزوم وبنوها هم أبو طالب وعبد الله بن الزبير بنو عبد المطلب.. والعباس بن عبد المطلب وابن أمه: ضرار أخوه.. وأمهما من النمر بن قاسط.. والهجين: يقصد به من كان أبوه عربى وأمه أمة.. لا يوارى له زند: كناية عن لؤمه وشحِّه.

أى أن حسان فى هجائه ركز على النقائص والمعايب فى نسب أبى سفيان من أمهاته لامن آبائه.

كما هجاه مرة أخرى بما فيه من خساسة ذاتية فقال:

أبوك أبٌ حـــرٌ وأمك حـــرةٌ

وقـد يلد الحُـرانِ غـيـرنجـيبِ

فلا يعجبنَّ الناسُ منك ومنهمـا

فمـا خَـبَثٌ من فـضَـةٍ بعـجـيب

أو يقول:

ولست بذى دين ولاذى أمـــانةٍ

ولستَ بحـرٍّ من لُؤَىٍ ولا كـعب

وبذلك حاصره من كل جانب بهجائه.. دفاعًا عن الإسلام ورداً على موقفه منه..

ويفعل نفس الشيء مع عبدالله بن الزِّبعرى ومن ذلك قوله:

زعم ابن نـابغــة اللئــيم بأننا

لا نجعل الأحسابَ دون محمـدِ

أمـــوالنا ونفــوسُنا من دونـه

من يصطنع خـيـرًا يُثَبْ ويُحـمَّـدِ

قـــوم ابن نـابغـــةَ اللئـــامُ أذلةٌ

لا يُقـبلون على صـفـيـر المُرْعـدِ

وبنى لهم بيـتًـا أبوك مـقـصـّرًا

كـفـرًا ولؤمًـا بئسَ بيتُ المحـتـدِ

ويقول فى أبى جهل:

لقد لعن الرحمان جمعًا يقودهُم

دعىُّ بنى شـجْع لحـرب محـمـدِ

مشومٌ لعينٌ كان قدمًا مبغضًا

يبَينُ فيه اللؤمُ من كان يهتدِي

ويقول فيه أيضاً:

سمّاه معشرهُ أبا حكَمٍ

والله سمّاه أبا جهْلِ

ولم يترك حسان أحداً آذى النبى والمسلمين إلا هجاه.. فقد هجا أمية بن خلف.. وعتبة بن أبى وقاص.. وضرار بن الخطاب.. وأبا لهب.. وبنى مخزوم.. وبنى عدى بن كعب.. وبنى أسد بن خزيمة وغيرهم من أجل الدعوة الإسلامية والدفاع عن العقيدة وعن الرسول ﷺ.

وحسان فى جاهليته وإسلامه كتب فى جميع الأغراض الشعرية.. فى الغزل والوصف والمدح والرثاء وغيرها من الأغراض..

ولأننا هنا لسنا فى مجال دراسة حسان فى أغراضه المختلفة.. لأن ما يعنينا هو تطور شعره فى الإسلام.. وانصرافه إلى الدفاع عن العقيدة والرد على هجاء المشركين.. ولا شك أن معانى كثيرة قد دخلت شعره فى الأغراض المختلفة.. وإن كان لم يتطور كثيراً فى أغراض مثل الغزل.. لكنه ركز تطوره وإضافاته فى الفنون الأخرى التى تخدم قضية الإسلام ومنها - إلى جانب الهجاء - وصف الغزوات والفخر بالإسلام والنصر.. ومدح الرسول وأخذه من القرآن الكريم.. ورثائه للرسول حين مات.. وهى فروق واضحة لمن يقرأ ديوانه..

وسوف نرجىء ما قاله حسان فى الغزوات إلى باب قادم نخصصه لما قيل فى هذه الغزوات من شعراء المسلمين والمشركين على السواء.

٢. كعب بن مالك الأنصاري:

وهذا ثانى الشعراء الثلاثة الذين وقفوا إلى جانب الرسول فى دعوته ينافحون عنه - ويردون هجاء المشركين..

وهو كعب بن مالك بن أبى كعب.. كان أبوه شاعراً قال الكثير فى حروب الأوس والخزرج قبل الإسلام.. وعمه قيس بن أبى كعب شهد بدراً وهو شاعر أيضًا.. وابنه عبد الرحمن شاعر.. وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر..

وقد عمر كعب بن مالك وروى عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة.. من بين ذلك ما روى أن الرسول ﷺ قال: والذى نفسى بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر..

ويذكر الأغانى أن قريشا كانت يهجوهم ثلاثة نفر من الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة.. وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر.. ويعيرانهم بالمثالب.. وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه.. ويعلم أن ليس فيهم شيء شر من الكفر.. فكانوا - فى ذلك الزمان - أشد شيء عليهم قول حسان وكعب.. وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة.. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة!

ويروى أن النبى ﷺ خرج على كعب بن مالك وهو فى المسجد ينشد الشعر فلما رآه كأنه انقبض.. فقال: كما كنتم فيه.. فقال كعب: كنت أنشد. فقال الرسول ﷺ: فأنشدْ..

فأنشد حتى أتى على قوله:

مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة

مذربة فيها القوانس تلمعُ

فقال الرسول: لا تقل عن جذمنا.. ولكن قل: مقاتلنا عن ديننا..

ويروى أنه ﷺ وقف بباب كعب بن مالك.. فخرج له.. فقال له: إيه.. فأنشده.. ثم قال: إيه.. فأنشده.. ثم قال: إيه فأنشده - ثلاث مرات - فقال الرسول ﷺ لهذا أشد عليهم من وقع النبل.

ومن أخبار كعب بن مالك كذلك أنه لما اشتد الأذى برسول الله ﷺ بعد موت زوجته خديجة رضي الله عنها وعمه أبى طالب.. ووصل الأمر إلى التآمر لقتله - أمره الله بالهجرة.. وكانت المدينة قد هيئت لاستقباله بعد بيعة العقبة ومعاهدة نقباء الأوس والخزرج لرسول الله: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وسجل كعب فى شعره أمر النقباء فقال:

أبلغ أُبيا أنه قال رأيه
وحان غداة الشّعب والحْينُ واقعُ

أبى الله ما منّتك نفسُك إنه
بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامعُ

وأبلغ أبا سُفيان أن قد بدالنا
بأحمدَ نورٌ من هدى الله ساطعُ

ودونك فاعلمْ أن نقض عهودنا
أباهُ عليكَ الرهطُ حين تبايعُوا

أباه البراءُ وابنُ عمروٍ كلاهما
وأسعدُ يأباه عليك ورافعُ

وسعدٌ أباه السّاعدي ومنذرٌ
لأنفك إن حاولت ذلك جادعُ

إلى أخر هذه القصيدة التى ذكر الأسماء كلها فيها..

ويروى ابن هشام فى سيرته أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفى كان شديد العداوة للرسول وأصحابه..

وكان قد قدم المدينة وأتى الرسول ﷺ قبل أن يخرج إلى مكة فقال له:

- ما هذا الدين الذى جئت به..

قال: جئت بالحنفية دين إبراهيم..

قال: فأنا عليها..

فقال النبى: إنك لست عليها..

قال ابن صيفى: بلي.. إنك أدخلت عليها ما ليس فيها.

قال: ما فعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية.

قال ابن صيفى معرضاً بالرسول ﷺ: أى أنك جئت بها كذلك.

قال: أجل.. فمن كذب..

وفى ذلك يقول كعب بن مالك فى ابن صيفى:

معاذ الله من عمل خبيثٍ

كسعْيك فى العشيرة عبد عمروِ

فإما قلت لى شرف ومالٌ

فقد ما بعت إيمانًا بكفرِ

ويظل كعب بن مالك ينافح عن العقيدة.. مع حسان وابن رواحة ملتصقين بالرسول ﷺ يسجلون كل شيء.. ويردون على المشركين شعراً بشعر.. وبلاغة ببلاغة.

٣.عبد الله بن رواحة:

أسلم قبل أن يهاجر الرسول من مكة إلى المدينة.. وشهد العقبة الآخرة مع السبعين من الأنصار.. وكان أحد النقباء الإثنى عشر.

وهو عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس... الأنصارى الخزرجى.. وكان من المعدودين الذين كانوا يعرفون الكتابة فى الجاهلية.. وكان يكتب بعد إسلامه للنبى ﷺ.

عاد عبدالله إلى يثرب بعد أن بايع الرسول البيعة الكبرى.. وأخذت تتتابع هجرة الصحابة إلى يثرب قبل مجىء الرسول.. وكان عبدالله بين المستقبلين لهؤلاء المهاجرين من مكة والساهرين على راحتهم..

وحينما اقترب الرسول من يثرب خرج عبدالله بين عدد كبير من المسلمين يحملون سيوفهم ليكونوا فى استقبال القادم الكريم.. حتى إذا ظهر الرسول فوق ناقته (القصواء) لهج الجميع بأنشودة (طلع البدر علينا).

وحينما هم الرسول والمسلمون ببناء المسجد كان عبدالله يرتجز:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجره

ويفصح ابن رواحة بحبه للرسول الكريم فى قوله:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه

إذا انشقَ معروفٌ من الفجر ساطعُ

يبيت يجافى جنبُه عن فراشه

إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا

به موقناتٌ أن ما قال واقعُ

وكان عبدالله بن رواحة أحد ثلاثة أمرهم الرسول بالرد على هجاء المشركين ويذكر له أنه أخذ بزمام ناقة الرسول ﷺ وهو داخل الحرم المكى فأنشد:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله

خلّوا.. فكلُّ الخير فى رسوله

قد أنزل الرحمان فى تنزيله

بأن خير القتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

أعرف حقّ الله فى قبوله

اليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

حتي إذا بلغ الحرم قال له الرسول: ـ إيها يا ابن رواحة.. قل: لا إله إلا الله وحده.. صدق وعده.. ونصر عبده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده..

فجعل ابن رواحة يقولها والناس من ورائه يرددونها فى حماس وقوة وفى حرب المسلمين مع الروم.. صارت الراية لابن رواحة الذى أمسكها فى شجاعة وكأنه يشم ريح الجنة فينشد:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ

لتنزلنَّ أو لتكرهنَّهْ

إن أجلبَ الناسُ وشــدوا الرنّهْ
مــــالى أراك تكرهين الجنـهْ

يا نفس إلا تُقـــتلى تموتى
هذا حـمـامُ الموت قـد صليتِ

ومـــا تمنيت فــقــد أُعطيت
إن تفـعلى فـعلهـمـا هُديتِ

وهو يقصد صاحبيه الشهيدين: زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وقد سبقاه فى القتال والشهادة.

وكان الرسول يحث بن رواحة على قول الشعر.. وروى أن الرسول سأله يوماً: كيف تقول الشعر إذا أرت أن تقول:

فأجاب ابن رواحة: انظر فى ذاك ثم أقول - وأشار إلى وجه الرسول - ومضى ينشد على البديهة:

يا هاشم الخـيـر إن الله فـضّلكم
على البرية فضـلاً مـاله غـيَرُ

إنى تفرستُ فيك الخيـر أعرفُـه
فراسةً خالفتهم فى الذى نظروا

أنت الرسولُ فمن يُحـرَم نوافلَه
والوجهَ منه.. فقد أزرى به القَدرُ

ولو سألتُ أو استنصرت بعضهم
فى جُل أمرك مـا ردُّوا ولا نصروا

فـثـبت الله مـا آتاك من حـسَنٍ
تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

فسر رسول الله ﷺ وقال له: وإياك فثبتّ الله!

وهكذا كان عبدالله بن رواحة محاربا بالسيف والشعر معاً.. جاعلاً من لسانه سيفاً يدافع به عن الإسلام والمسلمين حتى نال الشهادة.

ثالثاً: شاعرات صحابيات:

يجدر بنا هنا أن نذكر طرفًا من أشعار النساء الشاعرات أيام الرسول وكيف كن يعبرن بأشعارهن - كذلك - عن العقيدة الجديدة ويدافعن عن الرسول والمسلمين[1].

- فقد كان الرسول يستمع إلى **(الخنساء)** ويستزيدها بقوله: إيه يا خناس ويومىء بيده.. وقد عاشت حتى خلافة عمر وحضرت القادسية ودفعت أبناءها الأربعة حتى استشهدوا.. فقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته..

- أما **(صفية بن عبد المطلب)** فهى عمة الرسول وشقيقة عمه حمزة وأم الصحابى الزبير بن العوام.. وكانت من الصحابيات السابقات إلى الإسلام.. شجاعة شاعرة فصيحة.

قتلت صفية الجاسوس اليهودى يوم أحد بعمود خاتلته به.. ومن شعرها:

ألا من مُبلغ عنى قريشًا
فـفيم الأمرُ فينا والإمارُ
لنا السّلف المقدم قد علمتمُ
ولم توقد لنا بالغدر نارُ

---

(١) معجم الأديبات الشواعر - جمال الدين الحسينى تحقيق أحمد يوسف الرقاق - دار الثقافة العربية دمشق - وكذلك انظر: البيان المحمدى د. مصطفى الشكعة - الدار المصرية اللبنانية

وكل مناقب الأخـيـار فـينا
وبعض الأمـر منقـصـةٌ وعـارُ

وقالت ترثى أخيها حمزة حين استشهد فى أحد:

دعاه إله الحق ذو العرش دعوةً
إلى جنةٍ يحـيـا بهـا.. وسـرورِ
فـذلك مـا كنا نرجّى ونرتجى
لحمزة يوم الحشرِ خير مصيرِ
فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا
بكاءً وحزنًا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كـان مـدْرَها
يذودُ عن الإسـلام كل كـفـورِ

وحينما مات الرسول ﷺ بكت وقالت:

فـقـدت أرضُنا هناك نبـيّـا
كـان يُروى به النبـاتُ زكـيـا
خلقًـا عـاليـا ودينًا كـريمًا
وصـراطًا يهـدى الأنامَ سـويًا
وسـراجًـا يجلو الظلام مـنـيـرًا
ونبـيّـا مـسـوّدا عـربيّـا
فـعليك السـلام منا جـمـيـعًـا
دائم الدهر بكرة وعـشـيّـا

ـ وهذه (**قتيلة بنت النضر بن الحارث**) كان أبوها طبيب العرب.. حارب فى غزوة بدر مع قريش فأسره المسلمون وأمر الرسول بقتله فقتل..

قال التبريزى: كان النبى ﷺ قد تأذى مما قاله النضر فأمر بقتله.. وكان من جملة ما فعل أنه كان يقرأ الكتب فى أخبار العجم على العرب ويقول إن محمداً يأتيكم بأخبار عاد وثمود.. وأنا منبئكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة - يريد بذلك الإساءة والقدح بنبوته - وكان إذا سمع القرآن أعرض ونأى بجانبه واستهزأ.. فلما أسر يوم بدر أمر الرسول عليًا أن يضرب عنقه.. وعنق عقبة بن أبى مُعيط..

وهنا وجهت قتيله ابنته خطابها إلى الرسول ﷺ وراثية أباها:

يا راكــبّـــا إن الأثـيل مظنةٌ

من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ[1]

أبلغ بـه مـيـتًـا بأن تحـيـةً

ما إن تزالُ بها النجائب تعتقُ[2]

أمـحـمـد يا خـيـر صنو كـريمةٍ

فى قـومـهـا والفحل فحلٌ مُعرقُ

مـا كـان ضـرك لو مَنَنْتَ وربما

مَنَّ الفـتي وهو المغـيظُ المُحنَقُ

لو كنت قـابل فـدية لفـديتُـه

بأعـز مـا يفـدى به من ينفقُ

فالنضر أقرب من أسرت قرابة

وأحـقـهم إن كـان عـتقٌ يُعـتقُ

(١) الأثيل: موضع قبر النضر وهو قرب المدينة.

(٢) النجائب: الإبل الكرام - تعتق: تسرع.

فلما سمع ذلك الرسول ﷺ رق لها وبكى وقال: لو جئتنى من قبل لعفوتُ عنه.. ثم قال: لا تقتل قريش صبرا بعد هذا..

وبعد أن سمعت قول الرسول مدحته بقصيدة لم يعثر إلا على بيت واحد منها يقول:

الواهبُ الألفَ لا يبــغى به بدلاً
إلا الإلهَ ومـعـروفًا بما اصطنعـا

وأسلمت قتيلة بعد مقتل أبيها.. وصارت من الصحابيات اللائى يروى عنهن الحديث النبوى.. وتوفيت فى خلافة عمر بن الخطاب..

وهذه (**الشيماء بنت الحارث**)

أخت النبى ﷺ من الرضاع.. وقد مّر بنا كيف كانت ترقّصه فى بادية بنى سعد فى طفولته.. وكيف أن الرسول قد بسط لها رداءه يوم حنين.. وكانت بين السبايا.. وسمح لها أن تعود لقومها.. وأسلمت .

وكانت الشيماء ترتجل الشعر.. ويروى أن قومها أسروا يوم حنين، فبينما الرسول يميز الرجال من النساء.. وثبت الشيماء بين يديه وأنشدت:

امنن علينا رسـول الله فى حـرم
فــإنك المرءُ نرجــوه وننتظرُ
امنن على نسوة قد كنت ترضعها
يا أرجح الناس حِلماً حين يُختبرُ
أنا لنشكر للنعــمى إذا كُـفـرت
وعندنا بعـد هذا اليـوم مـدخـرُ

وهـذه (**هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب**) أسلمت بمكة فى فجر الدعوة.. وخاضت معارك الإسلام بشعرها.. وهجت كفار قريش..

ومن المواقف الرائعة.. أن هند بنت عتبة كانت وقفت فى أحد على صخرة مشرفة تفتخر بقتل حمزة وغيره من المسلمين منشدة:

نحن جزيناكم بيوم بدْرِ
والحربُ بعد الحربِ ذات سُعْر
ما كان من عتبةَ لى من صبر
ولا أخى وعمه.. وبِكْرى
شفيت نفسى وقضيتُ نذرى
شفَيْتُ «وحشىُّ» غليلَ صدرى
فشكر «وحشىٍّ» علىَّ عمرى
حتى ترمَّ أعظمى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة فقالت:

خزيتِ فى بدرٍ وبعد بدر
يا بنتَ وقَّاع عظيم الكُفر
صبَّحك الله غداة الفجر
ملهاشميين الطوال الزّهْر
بكل قطّاع حسامٍ يفْرى
حمزةُ ليْثى وعلىَّ صقْرى
إذ رام شيبٌ وأبوكِ غدْرى
مخضّبا منه ضواحى النحرِ
ونذرك السوء فشرّ نذرِ

وهكذا لم تتخلف الشاعرات على دخول مجال الشعر والدعوة الإسلامية والذود عنها والمشاركة فى المعركة.

رابعًا: الصحابة والشعر:

لم يكن الخلفاء الراشدون والصحابة بعيدين عن الشعر تذوقًا وإبداعًا وقولاً.. وجاء في البيان والتبين: وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعراً قليلاً أو كثيراً سمعوا.. واستنشدوا..

وسئل الحسن البصري: أكان أصحاب الرسول ﷺ يمزحون؟

قال: نعم.. ويتقارضون القريض - وهو الشعر - !

فأبو بكر الصديق كان يستنشد الشعر ويتذوقه.. ويبدى فيه آراء نقدية عجيبة ويستشهد به في خطبه..

ويروى صاحب السيرة له شعراً ثم يشكك فيه.. ومنه قوله:

ترى من لؤى فرقة لا يصدّها

عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعث

رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذّبوا

عليه.. وقالوا: لست فينا بماكث

ويروى عنه - رضى الله عنه - أنه كان يحب الحسن بن على حبًا شديداً.. وكان يحمله على عاتقه ويقول:

بأبى شبيهًا بالنبى

لست شبيهًا بعلى

وقال سعيد بن المسيّب: كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلى أشعر الثلاثة.. وهو يقصد أن كل واحد منهم لابد قد نظم بضعة أبيات في مناسبات مختلفة.

أمـا **عمربن الخطاب** فله مع الشعر والشعراء مواقف عديدة مشهورة وله فيه وفيهم أقوال حكيمة..

ويروى أنه ربما سهر الليل كله يصغى إلى الشعر حتى إذا حان الفجر طلب تلاوة القرآن.

وكان يفضل زهير بن أبى سلمى ويقول عنه: كان لا يعاظل فى الكلام ويتجنب وحشى الشعر.. ولم يمدح أحداً إلا بما فيه..

وحينما سمع قول النابغة الذبيانى:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبـةً

وليس وراء الله للمـرء مـذهبْ

قال لوفد غطفان: هو أشعر شعرائكم

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى - واليه على البصرة: مُرْ من قبلَك بتعلم الشعر.. فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب.

وموقفه من الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر معروف.. فقد حبسه فاستعطفه بالشعر فأخرجه من السجن..

ومرة كتب له أحد الشعراء:

نحجٌ إذا حجوا ونغزوا إذا غزوْا

فـإنى لهم وفـرٌ ولسنا بذى وفـرِ

إذا التـاجـر الهندى جـاء بفـارةٍ

من المسْك راحت فى مفارقهم تجرى

فـدونك مـال الله حـيث وجـدته

سيرضون - إن شاطرتهم - منك بالشطرِ

قال عمر: نشاطرهم أموالهم..

ويروى لعمر بعض الأبيات منها:

وهوّن عليك فـإن الأمـور
بكفّ الإله مـقـاديرها
فليس بآتيك منهيّـهـا
ولا قـاصـر عنك مـأمـورُها

ويروى العمدة مزيدا من شعره الذى ينسب إليه مثل:

توعـدنى كـعبٌ ثلاثاً يعـدُّها
ولا شك أن القولَ ما قال لى كعبُ
ومـا بى خوف الموت إنى لميّتٌ
ولكنّ خوفَ الذنب يتبعُه الذنبُ

أمـا **عثمان بن عفان** فقد اختلفت الأراء فى حبه للشعر.. لكن المؤكد أنه كان يكره فى الشعراء الفحش والهجاء.. ومن ذلك حبسه لشاعر من بنى غالب كان هجا قوماً هجاء سوء وفحش فحبسه حتى مات.

ويروى ابن رشيق لعثمان قوله:

غنى النفس يغنى النفس حتى يكفّها
وإن عضّها حتى يضرّ بها الفقرُ
وما عُسرةٌ فاصبرْ لها إن لقيتَها
بكائنةٍ إلا سيـتـبـعـهـا يسْـرُ

أما الإمام **على بن طالب**.. فقد جمع له ديوان من الشعر[1] فى أغراض

(١) جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم - المكتبة الشعبية - بيروت.

مختلفة وكان المسلمون يعرفون عنه بلاغته وشاعريته.. ويروى أنه حين اشتد هجاء شعراء المشركين للنبى ﷺ وصحبه.. ذهب كثير من المسلمين إلى على وقالوا له: اهج عنا القوم الذين يهجوننا.. فقال: إن عليا ليس عنده ما يراد لذلك - أى أنه تحرج من قول الهجاء خاصة فى قريش وهم قومه -

وكان يفضل امرأ القيس ويقول: كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة.. ويحسن بنا الآن أن نسوق طرفاً من أشعاره.

ينشد على أمام الرسول ﷺ قوله:

أنا أخو المصطفى لا شك فى نسبى
معه ربيتُ وسبطاه هما ولدى

جدى وجدّ رسول الله متحدٌ
وفاطمٌ زوجتى لا قول ذى فندِ

صدّقتُه وجميع الناس فى ظُلَمٍ
من الضلالةِ والإشراكِ والنكدِ

الحمد لله فرداً لا شريك له
البر بالعبد والباقى بلا أمدِ

ويقول فى الحكمة:

لا تضع المعروف فى ساقطٍ
فذاك صنعٌ ساقطٌ ضائعُ

وضعْه فى حر كريم يكنْ
عرفُك مسكا عرفُه ضائعُ

وفى غزوة أحد.. حزن على حزناً شديداً على شهداء المسلمين.. فأنشد يقول:

الله حى قــديم قــادر صــمـــدُ
فليس يشـركـه فى ملكه أحـدُ
هو الذى عـرّف الكفـارَ منزِلَهم
والمؤمنون سيجزيهم بما وعدوا
وينـصـــــر الله مـن والاه إن لـه
نصـرًا يمثل بالكفـار إن عندوا
فـإن نطقـتم بفـخـرٍ لا أبا لكمْ
فيمن تضمَن من إخواننا اللحدُ
فـإن طلحـةَ غـادرناه مُنجـدلاً
وللصــفــائح نارٌ بيننا تقــدُ
ومن قتلتم على ما كان من عجب
منا فقد صادفوا خيرًا وقد سعدوا
لهم جنان من الفـردوس طيـبـةٌ
لا يعتـريهم بهـا حـر.. ولا صردُ
ليسوا كـقتلى من الكفار أدخلهم
نار الجحيم على أبوابها الرصدُ

وعن نفسه يقول:

رضـينا قـسـمـةَ الجـبـار فـينا
لنا علمٌ وللجــهـــال مـــالُ

فـــإن المال يغنى عن قـــريبٍ

وإن الـــعـــلـــم بـــاقٍ لا يـــزالُ

وروى أن عمرو بن عبد ود نادى يوم الخندق: من يبارز.. فقام على فقال النبى له: اجلس إنه عمرو.. ثم كرر عمرو بن ود النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول: أين جنتكم التى تزعمون من قتل منكم دخلها.. أفلا يبرز إلى رجل وأنشد عمرو:

ولـقـــــد بحُـــحتُ من النّدا

ءِ بجـمـعكم هل من مـبـارزْ

ووقـــفت إذ جبنُ الشـــجـــا

عُ بموقفِ القِـــرن المُناجِـــزْ

إنـى كـــــــــذلـك لـم أزلْ

مـتـسـرعًـا نحـو الهـزاهزْ

إن الشـــجـــاعـــة والسّـــمـــا

حـةَ فى التى خـيـر الغـرائزْ

فبرز إليه على وهو يقول:

يا عـــمـــرو ويحك قـــد أتا

ك مـجيبُ صوتك غيـر عـاجـزْ

ذونيـــــةٍ وبصـــــيـــــرةٍ

والصـــدقُ مُنجى كل فـــائزْ

إنـى لأرجـــــو أن أقـــــيم

علـيـك نـائحـــــة الجـنـائزْ

من ضـــربة نجـــلاءَ يبـــقى

صـــيـتُــهـــا عند الهـــزاهزْ

ويذكر **للحسن بن على** - وقد خرج على أصحابه مختضبا:

نسـوّد أعـلاها وتأبَى أصـولهـا

فليت الذى يسـودّ منهـا هو الأصلُ

يريد هنا أنه يسود أطراف شعر رأسه والظاهر منها الخضاب.. ولكن جذور الشعر تأبى إلا البقاء على الشيب.

ومن شعر **الحسين بن على** وقد عاتبه الحسن فى امرأته:

لعـــمـــرك إننـى لأحب دارًا

تحلّ بهـــا سكينـةُ والربابُ

أحـبـهـمـا وأبذل جُلّ مـالى

وليس للائمى عندى عـتـابُ

وقبل أن يقتل الحسين فى كربلاء.. كان قد أحس بدنو أجله فأنشد يقول:

يـا دهـرُ أفّ لـك مـن خـلـيـل

كم لك بالإشـــراقِ والأصـــيلِ

من طالب أو صـاحب قـتـيـل

والدهر لا يقنع بالبـــديلِ

وإنما الأمـــــر إلى الجليلِ

وكل حىّ ســالك ســبـيلى

ومنقوش فى قبة الحسين بالقاهرة قوله:

خـــيـــرة الله من الخلق أبى
بعـد جـدى وأنا ابن الخـيـرتينْ
عـبـدَ الله.. غـلامـًا ناشـئـاً
وقـــريشٍ يعـــبـــدون الوثَنينْ
والدى شـــمسٌ وأمى قـــمـــرٌ
وأنـا الكـوكبُ بـين النيـــريـنْ

وهذا **حمزة بن عبد المطلب** يذكر لقاءه أبا جهل وأصحابه فى قصيدة يقول فيها:

فلمــا تراءينا أناخـوا فـعـقَّلوا
مطايا وعقَّلنا مدى غرض النَّبْلِ
وقلنا لهم: حـبل الإله نصيـرُنا
ومـا لكم إلا الضـلالةَ من حـبْلِ
فـثـار أبو جـهلٍ هنالك باغـيًـا
فـخابَ.. وردّ الله كـيد أبى جـهلِ
ومـا نحن إلا فى ثلاثين راكـبًـا
وهم مـائتـان بعـد واحدةٍ فـضلِ

ويرد عليه أبو جهل:

عجبتُ لأسباب الخطيئة والجهل
وللشـاغـبين بالخـلاف وبالبطْلِ
أتونـا بإفكٍ كى يضلوا عـقـولنَا
وليس مضلاً إفكهم عقل ذى عقلِ
فـقلنا لهم يا قـومنا لا تخـالفـوا
على قومكم إن الخلافَ مدى الجهلِ

أمـا **العباس بن عبدالمطلب** فقد كان فى الجاهلية رئيسًا فى قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية.. ثم كان من السابقين إلى الإسلام من الأنصار وتولى نصرة النبى ﷺ بعد وفاة عمه أبى طالب..

شـهد العبـاس مع النبى غزواته.. وفى غـزوة تبـوك المعروفـة بغـزوة العسرة. قال العباس للنبى: إنى أريد أن أمتدحك..

فقال له النبى: قل لا يفضض الله فاك..

فأنشأ العباس يقول:

من قـبلها طبتَ فى الظلال وفى
مـسـتـودع لا يُخـصف الورقُ
ثم هبـطت البـلادَ لا بـشـرٌ
أنت ولا مـضـغـةٌ ولا علقٌ
بل نطفـة تركب السَّفين وقـد
ألجم نـسْـرًا وأهلَه الغَـرقُ
فـأنت لما ولدت أشـرقَت
الأرضُ وضَـاء بنـورك الأفقُ
فنحن فى ذلك الضياء وفى النو
ر وسـبْل الرشـاد.. نخـتـرقُ

ونلاحظ أن هذه الأبيات ترجمة شعرية للحديث الشريف الطويل الذى يقول: «كنت فى صلب آدم.. وركب بى سفينة نوح فأنا من صلبه.. وقذف بى فى صلب إبراهيم. لم يلتق أبواى على سفاح قط.. إلخ.

ويوم حنين أنشد مفاخراً بثبوته مع النبى ﷺ:

ألا هل أتى عِرْسى مَكَرِّى وموقعى
بوادى حنين والأسنةُ تُشْـــرعُ
وقولى إذا ما النفس جاشت لها قَّدى
وهامٌ تدهْدىَ والسَّواعـد تقطعُ
وكيف رددتُ الخيلَ وهى مغيرةٌ
بزوراءَ تُعطى باليـــدين وتمنعُ
نصرنا رسول الله فى الحرب سبعةٌ
وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعُوا

أمـا **عبدالله بن عباس** رضى الله عنك.. فقد كان يحض الناس على الاستشهاد بالشعر بعد القرآن والحديث.. وكان يقول الشعر.. ومن ذلك قوله:

إذا طارقاتُ الهمّ ضاجعت الفتى
وأعمل فكرَ الليل والليلُ عـاكـرُ
وباكرنى فى حاجةٍ لم يجد بها
سواى ولا من نكبة الدهر ناصرُ
فرجتُ بما لى همّه من مقامه
وزايله همّ طروقٌ مســـامـــرُ
وكـــان له فـــضلٌ علىّ بظنّه
بى الخير.. إنى للذى ظن شاكرُ

ومن شعر **جعفر بن أبى طالب** ذى الجناحين قوله يوم مؤتة وفيه قتل:

يا حــبــذا الجنةُ واقــتــرابُهـــا
طيـــبـــةٌ وبـاردٌ شـــرابُهــــا

والروم روم قـد دنا عـذابُهـا

علىَّ إذ لاقيـتُـهـا ضـرابُهـا

تلك هى نماذج لموقف الصحابة من الشعر وكيف كانوا شعراء أيضًا يؤكدون قيمة هذا الفن.

ثالثًا: شعراء الغزوات:

لا يمكننا أن نحيط بما قيل فى الغزوات فى عهد الرسول من شعر سواء قاله المسلمون أم المشركون..

ومن ثم سوف نسوق هذا بعضا منه مما جاء فى كتب السيرة والمراجع الأدبية وهى نماذج تؤكد حماسة الشعراء وذودهم عن الدعوة والقبول بالشهادة أو النصر.. وكان الرسول يستمع إلى هذه الأشعار ويحمد الله أن هيأ له هؤلاء الشعراء ينافحون معه عن الدين القويم..

ولأن غزوات الرسول وسراياه من الكثرة بمكان.. فإن الشعر الذى قيل فيها يكون ثروة أدبية إبداعية لها مذاق خاص..

وسوف نطوف بغزوتى بدر وأحد باعتبارهما نموذجين للنصر والهزيمة ونصاحب الشعراء الفرسان وغير الفرسان الذين جعلوا من الشعر سلاحًا فتاكا يناظر السيف والرمح..

غزوة بدر:

وهى واحدة من أهم غزوات الرسول ﷺ لأنها تمثل أول انتصار للمسلمين على المشركين.. انتصرت فيها القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة..

يقول حسان فى ذلك من بين ما قاله وهو كثير.

لقــد علمت قــريشٌ يوم بدرٍ
غـداة الأسْـرِ والقـتلِ الشـديدِ
بأنا حين تشــتــجــر العــوالى
حـمـاةُ الحـربِ يوم أبى الوليـد
قـتلنا ابنىْ ربيـعـة يوم سـارا
إلينا فى مـضـاعـفـةِ الحـديدِ
وولت عند ذاك جـمـوعُ فِـهْـرٍ
وأسلمـهـا الحـويرثُ من بعـيـد
وكل القـوم قـد ولوا جـمـيـعًا
ولم يلْوَوْا على الحـسب التليـد

ويقول كعب بن مالك:

عـجـبتُ لأمـر الله والله قـادرٌ
على مـا أراد ليس لله قـاهرُ
قضى يوم بدرٍ أن نلاقى معشرًا
بغوْا وسبيلُ البغى بالناس جائرُ
وفـينا رسـول الله والأوسُ حـوله
له مـعـقلٌ منهم عـزيزٌ وناصـرُ
فلمـا لقـيناهم وكل مـجـاهدٌ
لأصحابه مستبْسلُ النفس صابر
شـهـدنا بأن الله لا رب غـيـرُه
وأن رســولَ الله بالحق ظاهرُ
بهنَ أبدنا جـمـعـهم فـتـبـددوا
وكان يلاقى الحيْن من هو فاجرُ

فكبّ أبو جهلٍ صريعًا لوجهه
وعتبةُ قد غادرنَهُ وهو عاثر

ويذكر ابن هشام - متردداً - قصيدة لحمزة بن عبد المطلب يقول فيها:

ونحن تركنا عتبة الغى ثاويًا
وشيبة فى القتلى تجرجم فى الجفر[1]
وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم
فشقت جيوبُ النائحات على عمرو
أولئك قوم قتّلوا فى ضلالهم
وخلّوا لواءً غير محتضر النصرِ
لواء ضلال قاد أبليسُ أهله
فخاس بهم إن الخبيث إلى غدر[2]
وفينا جنودُ الله حين يمدّنا
بهم فى مقامٍ ثم مستوضح الذّكرِ
فشد بهم جبريلُ تحت لوائنا
لدى مأزق فيه مناياهمُ تجرى

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة وقال:

ألا يالقومى للصبابة والهجرِ
وللحزن منى والحرارة فى الصدرِ
وللدمع من عينىّ جودا كأنه
مزيد هوى من سلك فاطمة يجرى

(١) جرجم: سقط - الجفر: البئر المتسعة.
(٢) خاس: غدر

على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى

رهين مقام للركيّة من بدرِ

فإن يك قوم صادفوا منك دولة

فلا بد للأيام من دول الدهرِ

وقال عبدالله بن الزبعرى السّهمى يبكى قتلى بدر من المشركين:

ماذا على بدر وماذا حوله

من فتيةٍ بيض الوجوه كرامِ

تركوا نبيها خلفهم ومنبهًا

وابنى ربيعة خير خصم فئام

والحارث الفياضُ يبرق وجهه

كالبدر جلى ليلة الإظلامِ

فأجابه حسان بن ثابت:

ماذا بكيت به الذين تتابعوا

هلا ذكرتَ مكارمَ الأقوام

وذكرت منا ماجدًا ذاهمةٍ

سمح الخلائق صادق الإقدامِ

أعنى النبى أخا المكارم والندى

وأبَر من يولى على الأقسامِ

فلمثله ولمثل ما يدعو له

كان الممدح ثم غير كهام[١]

---

(١) الكهام: الضعيف.

وكان عبيدة بن الحارث بن المطلب قد أصيب يوم بدر وقطعت رجله في مبارزة هو وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فى مواجهة المشركين فقال:

ستبلغ عنا أهل مكة وقعة

يهب لها من كان عن ذاك نائيا

فإن تقطعوا رجلى فأنى مسلمٌ

أرجّى بها عيشًا من الله دانيًا

مع الحور أمثال التماثيل أخلصت

مع الجنة العليا لمن كان عاليًا

لقيناهم كالأسْد تخطر بالقنا

نقاتل فى الرحمان من كان عاصياً

فما برحت أقدامنا من مقامنا

ثلاثتنا حتى أزيرو المنائيّا(١)

وقال ضرار بن الخطاب الفهرى يرثى أبا جهل:

فبلغ قرشًا أن خير نديَها

وأكرم من يمشي بساق على قدمْ

ثوى يوم بدر رهن خوصاء رهنها

كريم المساعى غير وغدولا برمْ(٢)

فآليتُ لا تنهلّ عينى بعبرة

على هالكٍ بعد الرئيس أبى الحكمْ

(١) المنائيا: المنايا ـ الموت.

(٢) الخوصاء: البئر العميقة الضيقة ـ البرم: البخيل.

ويروى فى هذه الغزوة أن برز عتبة وشيبة والوليد.. وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلى.. فقالوا: تكلموا نعرفكم..

فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله أنا حمزة بن عبد المطلب..

فقالوا: كفء كريم.

وقال علي: أنا عبدالله وأخو رسول الله..

وقال عبيده: أنا الذى فى الحلفاء.

فقال كل رجل إلى نظيره.. فقتل المسلمون المشركين وفى ذلك تقول هند بنت عتبة تبكى آباها:

أعينى جودى بدمع سرب
على خير خندف لم ينقلبْ
تداعى له رهطه غدوةً
بنو هاشم وبنو المطلبْ
يذيقونه حدّ أسيافهم
يعلّونه بعد ما قد عطبْ
يجرونه وعفير التراب
على وجهه عاريا قد سُلبْ
وكان لنا جبلاً راسيا
جميل المراة كثر العشُبْ

ونذرت هند أن تأكل كبد حمزة..

ومما روى كذلك أن عمير بن الحمام الأنصارى كان فى فمه تمرة يأكلها حين سمع رسول اللهيقول: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.. فقال: نعم بخ بخ.. وأخرج التمرة من فمه وذهب يقاتل منشداً:

ركضًا إلى الله بغير زادِ
إلا التقى وعمل المعاد
والصبرُ فى الله على الجهادِ
وكل زادٍ عرضة النفادِ
غير التقى والبر والرشادِ

ومن يقرأ ديوان حسان وكعب يقف على قصائد كثيرة قيلت فى غزوة بدر تمجد نصر المسلمين.. وتشيد بالعقيدة وتهجو المشركين والقتلى من زعمائهم الذين كانوا يعادون الإسلام..

وقد قصدنا هنا أن نقف بالقارئ على بعض ملامح الساحة الشعرية التى قاتلت وانتصرت إلى جانب الساحة القتالية بالسيف والدماء..

غزوة أحد:

استعد المشركون للأخذ بثأر قتلاهم فى بدر.. فكانت غزوة أحد.. وكانت هند بنت عتبة تقود النسوة وهن يضربن الدفوف خلف الرجال ويحرضنهم على القتال وتقول:

ويها بنى عبد الدار
ويها حماة الأدبار
ضربًا بكل بتار

وتقول:

إن تقبلوا نعانقْ
ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نفارقْ
فراق غير وامقْ

وكان شعار المسلمين يوم أحد: أمت أمت..

واستشهد يوم أحد حمزة ومصعب بن عمير وحنظلة بن أبى عامر.. وعمر بن الجموح وأصيب عبد الرحمن بن عوف.. كما أصيب الرسول ﷺ نفسه..

ومما قاله شداد بن الأسود فى قتل حنظلة:

لأحمينّ صاحبى ونفسى

بطعنةٍ مثل شعاع الشمسِ

ويقول أبو سفيان ذاكراً كيف كان صابرا على القتال:

وسلى الذى قد كان فى النفس أننى

قتلتُ من النجار كل نجيبِ

ومن هاشم قرْمًا كريماً ومصعبًا

وكان لدى الهيجاء غير هيوب

ولو أننى لم أشف نفسى منهمُ

لكانت شجا فى القلبِ ذات ندوبِ

فيرد عليه حسان بن ثابت:

ذكرتَ القروم السُود من آل هاشمٍ

ولستَ لزور قلتَه بمصيبِ

أتعجبُ إن أقصدت حمزة منهم

نجيبا وقد سميته بنجيبِ

ألم يقتلوا عمرًا وعتبة وابنه

وشيبة والحجاجَ وابن حبيبِ

غداة دعا العاصِ عليّا فراعه
بضـربةعـضبٍ بله بخـضـيبِ

ويقول حسان كذلك فى قتل أُبى بن خلف:

لقـد ورث الضـلالة عن أبيـه
أبىَّ يـوم بـارزه الـرســـــولُ
أتيت إليـــه تحـــمل رمَ عظمٍ
وتوعـــده وأنت بـه جـــهـــولُ

وحينما لاكت هند كبد حمزة أنشدت شعراً كثيراً منه:

شفيت من حمـزة نفسى بأُحُدْ
حين بقـــرتُ بطنه عن الكبَـدْ
أذهب عنى ذاك مـا كنتُ أجِـدْ
من لذعة الحزن الشديد المعتمدْ

وهذا الشاعر المشرك هبيرة بن أبى وهب يقول شامتاً:

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن
عرض البلاد على ما كان يزجيها
نحن الفوارسُ يوم الجَرَ من أُحد
هابتَ مـعـدَ فـقلنا نحن نأتيـهـا
هابوا ضراباً وطعنا صادقًا خذمًا
مما يرون وقد ضمت قواصيها(١)

ولم يتركه حسان بن ثابت بل رد قوله بقوله:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم
إلى الرسـول فـجند الله مـخـزيـهـا

---

(١) الجر: أصل الجبل - الخذم: المذل - قواصيها: البعيد من الأرض.

أورثتموها حياض الموت ضاحية

فالنار موعدها.. والقتل لاقيها

كم من أسـيـر فككناه بلا ثمن

وجـز ناصـيـة كنا مـواليـهـا

وكذلك رد كعب بن مالك بقصيدة طويلة منها:

ولكن ببـدر سـائلوا من لقـيـتمُ

من الناس والأبناء بالغيب تنفعُ

وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها

سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا

نجـالد لا تبـقى علينا قـبـيلةٌ

من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

وبكى كعب بن مالك حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد فى قصيدة يقول فيها:

فكلهمُ مـــات حــر البـــلاءِ

علـى مـلـة الله لـم يحُـــــرجِ

كـحـــمــزة لما وفى صــادقـا

بذى هبّــة صـــارم سلجِ

ونعــمـــان أوفى بميـــثــاقــه

وحنظلة الخــيـــر لم يجنح[1]

فأجاب ضرار بن الخطاب الفهرى شامتاً:

أيجــزع كــعب لأشــيــاعــه

ويبكى من الزمن الأعـــرجِ

(١) ذى هبة: أى سريع بالسيف - سلجج: مرهف.

فـــقـــولا لكعب يثنى البكاء

وللنىء من لحـــمــــه ينضجِ

لمصــــرع إخـــوانه فى مكرَ

من الخـيل ذى قَسطل مـرهج(١)

وذكرت أشعار كثيرة لعبد الله بن الزبعرى ـ وعمر بن العاص (وكان لا يزال فى صـفـوف المشـركين) وغـيـرهم.. وكـان حـسـان وكـعب لهم بالمرصاد..

ويروى ابن هشام عن الحجاج بن علاط السّلمى ذلك الفارس المسلم يمدح على بن أبى طالب حين قتل أبا طلحة بن عبد العزى صاحب لواء المشركين يوم أحد فأنشد:

لله أى مـــذبب عن حـــرمــــةٍ

أعنى ابنَ فـاطمـة المعمَّ المخـولاَ

سـبـقت يداك له بعـاجل طعنةٍ

تركت طليـحـة للجـبين مـجندلاَ

وشـددت شـدة باسل فكشـفـتـهم

بالجـر إذ يهـوون أخـول أخـولاَ

كما بكى ابن رواحة حمزة بقوله:

بكت عــينى وحق لهـــا بكاها

ومـــا يغنى البكاءُ ولا العــويلُ

على أســد الإله غـــداة قـــالوا

أحـــمــزة ذاكم الرجل القــتــيلُ

(١) القسطل: البغبار ـ المرهج: المرتفع.

أصـيب المسلمـون به جـمـيـعًا

هناك وقـد أصـيب به الرسـولُ

وبكت حمزة أختُه صفية بن عبد المطلب بقولها:

فـوالله لا أنسـاك مـا هبت الصبـا

بكاء وحـزنا محضـرى ومـسيـرى

على أسـد الله الذى كـان مـدرهًا

يـذود عن الإسـلام كُل كـفـور

فـيـاليت شلوى عند ذاك وأعظمي

لدى أضـبـع تعـتـادنى ونسـورِ

أقول وقد أعلى النعى عشيرتى

جـزى الله خـيـرًا من أخٍ ونصيـرِ

●●●

لقد أردنا هنا أن نسوق طرفاً مما كان يقال فى الغزوات من الشعر سواء قاله المسلمون أو المشركون.. وقد أفرد ابن هشام فى سيرته.. وكذلك ابن كثير فى (البداية والنهاية) - وأخبار الصحابة فى سيرهم.. ما يملأ صفحات وصفحات حيث كان لكل غزوة شعرها الذى لهج به الشعراء يتقارعون به وكأنهم يتقارعون بالسيوف.. ويفصلون أحداث كل غزوة ومن قتل فيها ويرثون ويهجون ويمدحون ويفاخرون.. بما يعد ديوانًا كبيراً يمكن أن يجمع على حدة..

ومن ثم رأينا أن نكتفى هنا بغزوتى بدر وأحد دليلاً على دور الشعراء فى التعبير عن الأحداث والانتصارات والهزائم.. ومؤكدين كيف كان للشعر دوره الخلاق فى التسجيل والإشادة والذب عن الحق أو الباطل على ألسنة الشعراء من الطرفين.

●●●

خاتمة

إن موضوع هذا البحث يمكن أن يكون ضعف هذه الأوراق أو أكثر لو نظرنا نظرة شمولية .. لكننا رأينا أن نقدم ما يؤكد علاقة الشعراء بالدعوة الإسلامية وموقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء .. ثم نرحل بعد تأكيد هذه النظرة فى قلب المجتمع الإسلامى حيث بدأ المشهد الشعرى تتكون ملامحه - كما رأينا فى طوائف من الشعراء المسلمين: شعراء مخضرمون - وشعراء وقفوا إلى جانب الرسول فى دعوته .. وشعراء عبروا عن النصر والهزيمة وإن اختلط بهم شعراء من الطائفتين السابقتين ..

وهى رحلة رجعنا فيها لأوثق المصادر .. وعلقنا بآرائنا على هذه المصادر فى مكانها .. وتمنينا طيلة مسيرتنا أن يعيش معنا القارىء دور الشعر والشعراء فى الدفاع عن الإسلام إلى جانب السيف البتار فى أيدى الفرسان ..

والله الموافق،

أحمد سويلم

أهم المراجع والمصادر

١ـ السيرة النبوية: لابن هشام، ٤ ج ـ تحقيق لجنة من العلماء ١٩٦١ ـ مطبعة الأنوار المحمدية.

٢ـ العمدة: لابن رشيق ـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٨١ ـ دار الجيل.

٣ـ تاريخ الصحابة والتابعين: د. حمزة النشرتي وآخرون ج٤ـ ١٩٩٨.

٤ـ الشعر والشعراء: لابن قتيبة ج٢ ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ١٩٨٢ ـ دار المعارف.

٥ـ البداية والنهاية: لابن كثير ج٣، ٤ ـ ١٩٦٦ ـ مكتبة المعارف بيروت.

٦ـ الأغاني: للأصفهاني ج٣٠ ـ تحقيق إبراهيم الأبياري ١٩٧٠ ـ دار الشعب.

٧ـ البيان المحمدي: د. مصطفى الشكعة ١٩٩٥ ـ الدار المصرية اللبنانية.

٨ـ رحلة الشعر: د. مصطفى الشكعة ١٩٩٧ ـ الدار المصرية اللبنانية.

٩ـ العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف ١٩٩٥ ـ دار المعارف.

١٠ـ الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة: النبوي شعلان ١٩٩٨ ـ دار قباء.

١١ـ غزوات الرسول بين شعراء الشعوب الإسلامية: د. حسين مجيب المصري ٢٠٠٠ ـ الدار الثقافية للنشر.

١٢ـ الإسلام والشعر: د. سامي مكي العاني ـ عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣.

١٣- الإسلام والشعر دراسة موضوعية: د. إخلاص فخرى ١٩٩٢ - مكتبة الأداب.

١٤- شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام: د. النعمان القاضى ١٩٦٥ - الدار القومية للطباعة والنشر.

١٥- حسان بن ثابت : د. محمد طاهر درويش ١٩٧٧ - دار المعارف.

١٦- ديوان حسان بن ثابت: د. سيد حنفى حسين ١٩٨٣ - دار المعارف.

١٧- الإعلام الشعرى فى التراث العربى: أحمد سويلم ١٩٩٥ - الهيئة العامة للكتاب.

١٨- نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ظافر القاسمى ١٩٧٧ - دار النفائس بيروت.

١٩- الهجاء: د. سامى الدهان ١٩٥٧ - دار المعارف.

٢٠- المدح: د. سامى الدهان ١٩٨٠ - دار المعارف.

٢١- دواوين الشعراء الذين وردت أسماؤهم فى البحث.

مؤلفات الشاعر احمد سويلم

الأعمال الشعرية:

- الطريق والقلب الحائر	دار الكتاب العربى	١٩٦٧
- الهجرة من الجهات الأربع	مؤسسة التأليف والنشر	١٩٧٠
- البحث عن الدائرة المجهولة	دار الناشر العربى	١٩٧٣
- الليل وذاكرة الأوراق	مكتبة مدبولى	١٩٧٧
- الخروج إلى النهر	هيئة الكتاب	١٩٨٠
- السفر والأوسمة	دار الشروق	١٩٨٥
- العطش الأكبر	مكتبة مدبولى	١٩٨٦
- الشوق فى مدائن العشق	هيئة الكتاب	١٩٨٧
- قرأة فى كتاب الليل	دار الشروق	١٩٨٩
- الأعمال الشعرية جـ١(٨ دواوين)	هيئة الكتاب	١٩٩٢
- شظايا	دار الشروق	١٩٩٣
- الزمان العصى	هيئة الكتاب	١٩٩٥
- الرحيل إلى المدائن الساهرة	هيئة قصور الثقافة	١٩٩٧
- لزوميات	هيئة الكتاب	١٩٩٧
- الأعمال الشعرية ج٢ (٥ داووين)	هيئة الكتاب	١٩٩٩
- جناحان إلى الجوزاء	دار قباء	٢٠٠٠
- رعشة فى الأفق	دار الشروق	٢٠٠٢
- صرخات تحت قبة الأقصى	هيئة الكتاب	٢٠٠٣
- عرس النار	هيئة قصور الثقافة	٢٠٠٤

المسرح الشعرى:

ـ أخناتون	دار المعارف	١٩٨٢
ـ شهريار	هيئة الكتاب	١٩٨٢
ـ الفارس	هيئة الكتاب	١٩٩٥
ـ الأعمال المسرحية (٣مسرحيات)	هيئة الكتاب	١٩٩٩

دراسات:

ـ شعرنا القديم رؤية عصرية	المجلس الأعلى للثقافة	١٩٨١
ـ المرأة فى شعر البياتى	هيئة الكتاب	١٩٨٤
ـ أطفالنا فى عيون الشعراء	دار المعارف	١٩٨٥
ـ محمد الهوارى شاعر الأطفال	المركز القومى لثقافة الطفل	١٩٨٦
ـ التربية الثقافية للطفل العربى	مركز الكتاب للنشر	١٩٩١
ـ مسلمون هزموا العجز	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩١
ـ عظماء أغفلهم التاريخ	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٢
ـ مجانين العشق العربى	أخبار اليوم	١٩٩٣
ـ الإعلام الشعرى فى التراث العربى	هيئة الكتاب	١٩٩٥
ـ الفكر الإسلامى فى ثقافة الطفل العربى	مركز الكتاب	١٩٩٧
ـ محمود سامى البارودى	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
ـ قيس بن الملوح	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
ـ عنتره بن شداد	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
ـ شعراء العمر القصير (جـ٢)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٠

- نوادر الشـــعـــراء بين الظرف والذكاء	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٤
- الشعراء والسلطة	دار الشروق	٢٠٠٤
- ثقافتنا فى مفترق الطرق	مكتبة الشروق الدولية	٢٠٠٤

الأطفال:

- حكايات من ألف ليلة وليلة (٥حكايات)	دار الشروق	١٩٨٠
- عشر مسرحيات شعرية	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٧
- حكمة الأجداد (قصص ٣٠ مثلا عربيا)	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٩
- أبو العلا المعرى	دار المعارف	١٩٩٣
- مدائن إسلامية (٨ كتب)	سفير	١٩٩٣
- طفولة عظماء الإسلام (٨ كتب)	سفير	١٩٩٣
- أتمنى لو (قصائد)	هيئة الكتاب	١٩٩٤
- ديوان الطفل ما قبل المدرسة	التربية والتعليم	١٩٩٥
- بستان الحكايات (١٠ قصص شعرية)	قطر الندى	١٩٩٦
- ديوان الفتى العربى	الشروق	١٩٩٧
- تعالوا نغنى حروف الهجاء	المكتب العربى للنشر	١٩٩٧
- أنا وصدقائى (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠٠٠
- ديوان الطفل العربى	الدار الثقافية	٢٠٠١
- هل يتوب الثعلب	دار الهلال	٢٠٠٢

ـ خمس مسرحيات شعرية	دار الكتاب اللبنانى	٢٠٠٢
ـ واحة الحيوان (قصص شعرية)	قطر الندى	٢٠٠٢
ـ أحب أن أكون (شعر)	الدار الثقافية	٢٠٠٢
ـ فلسطين عربية (شعر)	نهضة مصر	٢٠٠٣
ـ يقول المثل العربى (شعر)	دار الشروق	٢٠٠٣

فهرس الموضوعات